بسم الله الرحمن الرحيم
من الإعجاز البلاغي
في
سورة الصافات
إعداد
دكتوره/ منى محمد علي عيد
أستاذ مساعد البلاغة والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

من الإعجاز البلاغي في سورة الصافات

مُقدمة:

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمٍ لا تُحصى، والصلاة والسلامُ على النبي المُصطفى محمد بن عبد الله، وعلى أصحابه نجُومُ الهدى الذين حملوا لواء الحق وساروا على النهج القويم والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين صلاةً متصلةً بلقائهِ ..

أما بعد:-

فإن دراسة العربية طريق لفهم كتابه والتمعن في بلاغتها سلماً لاستخراج اللآلئ من معاني الكلمات، ودراسة البلاغة في ضوء القرآن الكريم هي منبع الفوائد، فيها معرفة طريق الحق، فضلاً عن تدبر معاني كتابه سبحانه، والوقوف على محاولة إدراك شيء من أسراره، والإحاطة بموطن من مواطن جماله؛ فهو كلام الله المُعجز المُتَحَدَّى به الإنس والجنّ قال تعالى في سورة الإسراء: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[1]. ومهما يبحث الباحثون في كتاب الله سيكون دائماً وأبداً البحث شيقاً مفيداً في مصادر لغوية تقرّب لهم بعيدهُ وتكشفُ لهم عن مَشكلِهِ، وتفسّر لهم ألفاظه، وتوضّح بين أيديهم آيات إعجازه.

١- الإسراء: ٨٨.

وسورة الصافات من السور التي كثرت آياتها، وجرسها الموسيقي ظاهر لا يخفى، جميلة الآيات، سهلة مع عظم المعاني، تلك الآيات التي تدنو من المائتين تأتي في ترتيب المصحف الشريف بعد قلب القرآن الكريم "يس"؛ فكأنها شُريان القلب، ومداد الصدر، وتبدأ بالقسم كما بدأت "يس" وغيرها من السور القرآنية، والقسم عهد وميثاق، وضرب أكيد من ضروب التوكيد، وبكل اعتبار نرى أن المُقسم به فيها يتكلف بالعين حين يأخذها إلى الصفوف المتراصّة التي انتظمت في حبل الطاعة، طاعة الحيّ القيوم، وكأنها توحي بهذا النظام.

فلقد أنزل الله تعالى الكتاب هُدًى وذكرى لأولي الألباب، ولقد دفعني للبحث البلاغي في هذه السورة الكريمة:

١- أنها سورة كريمة أشارت إلى قضية هامة، وهي إثبات وحدانية الله عز وجل، وسوق الأدلة على ذلك وإثبات النبوة والمعاد.

٢- إثبات أن البعث يعقبه الحشر، ووصف حال المشركين يعقبه وصف حسن حال المؤمنين ونعيمهم المُقيم الدائم إن شاء الله سبحانه.

٣- بينت السورة نصرَ الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم وأدمج من خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوتهم في دين الله تعالى. وما نجاهم الله من الكروب التي حقت بهم، وخاصة منقبة الذبيح، وكذا وصف ما حلّ بالأمم الذين كذبوهم.

٤- وعد الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر المبين كدأب المُرسلين والمؤمنين السابقين وقد وضحت ذلك بمعانٍ بلاغية غاية في الروعة والجمال والبهاء، وتُسهم كثيراً في معرفة الله عز وجل بأجمل أسلوب وأروع بيان.

وقد جاء البحث على النحو التالي:

١- التمهيد: ويشمل اسم السورة ومناسبتها لما قبلها في الترتيب النزولي والمصحفي، ومكان نزولها وعدد آياتها، موضحة مقاصدها، والأسلوب المستخدم فيها.

٢- الفصل الأول: الألفاظ القرآنية وإبداع اختيارها وهو فن من فنون الأساليب وما يشتمل عليه اللفظ من جرسٍ ونظم، وإيقاع وإيحاء وتوافر السجيع وحُسن الابتداء والانتهاء .. كل ذلك في معاني دقيقة رقيقة رائعة.

٣- الفصل الثاني: استعمال الكلمة لبنائها ووزنها وتسلسلها البديع.

٤- الفصل الثالث: العرض والبيان في السورة عرضاً يسير عل المنهج التالي:

أ - ربط الآيات بعضها ببعض مرتبة في مواضعها.

ب-تناول معاني الحروف والكلمات بالشرح والتفصيل والقصص الموجود فيها وذكر ما يُستفاد من الآيات من عبر وعظات وأحكام وبيان.

ج - اللفظة القرآنية وكيفية اختيارها والتلاؤم بين أجزائها والتناسق من بداية السورة الكريمة إلى ختامها، والوحدة السياقية الموضوعية والتسلسل البديع في السورة الكريمة.

هـ - المعاني البلاغية ووجه تمكنها وجمالها وحُسن تأديتها للمعاني في روعة ودقة وبهاء وصفاء وإبداع ما بعده إبداع.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

دكتوره

منى محمد علي عيد

أستاذ مساعد البلاغة

والنقد

* التمهيـــــد *

سورة الصافات مُتفق على اسمها في جميع المصاحف وكُتب السنة، ولكن ذكر صاحب الإتقان "ورأيت في كلام الجعبري أن سورة الصافات تسمى سورة الذبيح، وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر"[١].

ولم يثبت شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم في تسميتها. وهي السادسة والخمسون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأنعام، وقبل سورة لقمان[٢].

وهي السابعة والثلاثون في الترتيم المصحفي وموضوعاتها هي موضوعات القرآن الكريم قبل الهجرة من الانتصار لعقيدة التوحيد والبعث وقصص الرسل، وتتميز هذه السورة العظيمة بقصر الآيات، والإيقاع السريع كأن آياتها بُروق تلمع في الظلام وبعض آياتها تكون من جملة واحدة "أفلا تذكرون"[٣].

عدد آياتها مائة واثنتان وثمانون، وقيل عدَّها البصريون مائة وإحدى وثمانون[٤].

1- الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – بتحقيق: أبو الفضل ١٦١/١، ط ثالثة، ١٩٨٥م.
2- التحرير والتنوير ٨١/٢٣.
3- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، ٣٥٤/٣، د. عبدالعظيم المطعني، قتيبة، وهبة، ١٩٩٩م.
4- التحرير والتنوير ٨١/٢٣، روح المعاني، للألوسي ٦٤/٢٣، حاشية الشهاب ٢٠٥/٧.

وسميت بالصافات نظراً لوقوع هذا اللفظ فيه بالمعنى الذي أريد به أنه وصف الملائكة وإن كان وقع في سورة الملك[١]. لكن بمعنى آخر إذ أريد هنالك صفة الطير[٢].

وذكر في "مناسبة أول هذه السورة آخر سورة "يس" أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتى، وأنه هو منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان ذكر هنا وحدانيته سبحانه إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً، لا يكون المريد واحداً، كما يشير إليه قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [٣].

ولهذه السورة الكريمة قدر عظيم مثل جميع آيات الذكر الحكيم، فقد ذكر من فضلها برواية القرطبي في تفسيره بسنده إلى يحيي بن يحيي التميمي النيسبوري إلى أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرّة ولا مرتين يقول آخر صلاته أو حين ينصرف:

{ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ *وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [٤].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (من قرأ الصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الجن

1- سورة الملك آية ١٩ "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

2- التحرير والتنوير ٨١/٢٣.

3- التحرير والنوير ٨١/٢٣، الأنبياء: ٢٢.

4- الصفات آية ١٨٠ : ١٨٢، وروح المعاني ٦٤/٢٣، والتحرير والتنوير ٢٠/٢٣.

والشياطين، وبرئ من الشرك، وشهد له حافظاً يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين[1].

[وعن علي يرضى الله عنه - هن أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في محله سبحانه ربك إلى آخر السورة][2].

1- حاشية الشهاب ٢٩٣/٧، دار صادر، بيروت، الكشاف ٣٥٨/٣.

2- حاشية الشهاب ٢٩٣/٧، التحرير والتنوير ٢٠٠/٢٣، والمحرر الوجيز ٢١٩/١٣، وينظر: شرح الباري على صحيح البخاري، ط. دار المعرفة، وينظر: الدر المنثور، للسيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، وأخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سرّهُ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم سبحان ربك رب العزة عما يصفون ... الخ).

الفصل الأول

الألفاظ القرآنية وإبداع اختيارها

ألفاظ القرآن الكريم جميعها واردة على أكمل وأتم وأجمل وجه، وأعلى طبقة من البلاغة والفصاحة، وذلك لما فيها من فنونٍ مختلفة بديعة، ولطائف رائعة، كما أن فيها ما يناسب ما نزل من أجله القرآن الكريم من الهداية إلى الطريق المستقيم ترغيباً وترهيباً، وتذكيراً بنعمِ الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى، والجنة وروعتها، والنار وبشاعتها..

ففي القرآن الكريم من البيان والبراعة ما تحير فيه العقول، ويبهر بجماله القلوب ففي الآيات طريق الصلاح والهداية للعباد وذلك كله بأسلوب القرآن العظيم المتفرد المتميز الذي لا يشابهه أسلوب وإن علا، فالقرآن الكريم لا يعلو عليه شيء فهو يعلو ولا يعلو عليه.

فنرى الجاحظ[1]، وهو زعيم البيان العربي في قوته ودقته وصحته وطلاوته وجمال فنه أنه: لابد من دراسة اللغة العربية وآدابها وفنونها، وضروبها؛ حتى يستطيع الدارس أن يميز بين نظم ونظم وبين كلام وآخر يقول: [وفرق ما بين النظم القرآني وتأليفه، ونظم سائر الكلام وتأليفه .. فليس يعرف فروق النظم واختلاف

1- هو: أبو عثمان بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ البصري العالم المشهور صاحب التصانيف في كل فن، ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ١٤٠/٣ بتحقيق: محي الدين ط. أولى، ١٩٤٨م مكتبة النهضة، والملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ١١١/١، نشر وطبع صبيح (ب.ت).

البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز والمخمس من الأسجاع، والمزاوج من المنثور، والخطب من الرسائل][1].

كما أن الجاحظ يرى أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب، والشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل[2]. كما لا تجوز ترجمة كتب الدين[3]. لاستحالة نقل المعاني التي تحملها الألفاظ بعد نظمها وتأليفها ومعنى ذلك أن الإمام لاحظ النكات البلاغية التي تحدث بسبب النظم وأنها من خصائص اللغة العربية.

ونجد أن الجاحظ لا ينكر دور المعاني في تحسين الكلام، ولكنه ليس مقياساً فنياً لبيان الكلام البليغ الجيد، فعنده الميزة البلاغية في اللفظ المعبّر به عنه الصورة التي يحدثها النظم يقول: "فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"[4].

أما ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦هـ[5] نجده أدرك بأن عناصر الجمال في الكلام بوجهٍ عام تأتي من ثلاث جهات:

أولاً: الألفاظ.

ثانياً: المعنى الأصلي.

1- العثمانية للجاحظ، ص ١٦، بتحقيق هارون ط. دار الكتب.
2- الحيوان ٧٤/١، وما بعدها بتحقيق هارون، ط. أولى، ١٣٥٦هـ.
3- الحيوان ٧٧/٣، ٧٨.
4- البيان ١٣٦/١.
5- هو: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري وقيل المروزي النحوي اللغوي تصانيفه كلها ذات فائدة، توفى سنة ٢٧٦هـ، ينظر: وفيات الأعيان ٤٢٦/٢.

ثالثاً: المعاني البلاغية التي تحدثها الألفاظ، وذلك إذا ضمت بعضها إلى بعض على طريق مخصوص، وأنه يمكن إدراك جمال الكلام بالذوق الأدبي التي تربى تربية سليمة قوامها فهم ودراسة اللغة العربية وآدابها ومعرفة العرب وفهم مذاهبهم وكذا تفننهم في الأساليب ومختلف ضروب الكلام[١].

يقول ابن قتيبة: "فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب"[٢].

يوضح ابن قتيبة بأن بعض معاني القرآن الكريم مكشوفة ظاهرة، يستوي في معرفتها العالم والجاهل ولعله يريد بذلك المُحكم[٣].

والبعض الآخر غامض لا يعرفه إلا العلماء، ولعله يريد المتشابه[٤].

قال: "إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن"[٥].

ومما سبق نجد أن ابن قتيبة يوضح أن بطول الممارسة وبفهم النصوص سواء كانت دينية أو غير دينية، يستطيع الذوق أن يحكم على النظم القرآني ويدرك سر تفوقه على النظوم.

- تأويل مشكل القرآن، ص ٤، لابن قتيبة، بتحقيق: أحمد صقر، ط. الحلبي ١٩٥٤م.
2- المرجع السابق، ص ١٠.
3- السابق، ص ١٧.
4- نفسه، ص ١٩.
5- نفسه، ص ٦٢.

ونجد قدامة بن جعفر[١]، يؤمن بالصياغة والشكل وذلك "لأن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صانعاً بل إنما يراد أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر لا أن ينسخ ما قاله في وقت آخر"[٢].

كما أن ابن طباطبا[٣]، يشبه الألفاظ بالمعرض قائلاً: "التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه"[٤].

ومعنى ذلك أن ابن طباطبا يقصد الحسن على الألفاظ فقط دون المعاني.

ثم جاء الرماني[٥]، موضحاً بأن أعلى طبقة في البلاغة هي بلاغة القرآن الكريم وهي له خاصة، وهي معجزة للعرب والعجم

1- هو: قدامة بن جعفر المتوفي سنة ٣٣٧هـ، ينظر: معم الأدباء لياقوت الحموي ١٧/ ١٥: ١٢، ط. دار المأمون.

2- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص ٥، ط. أولى الجوناب.

3- هو: محمد بن طباطبا العلوي المتوفي سنة ٣٢٢هـ، كان معاصراً لابن المعتز، وقدامة بن جعفر، ينظر: عيار الشعر، ص ٣ وما بعدها، بتحقيق: الحاجري ولاسم، طبع ١٩٥٦.

4- عيار الشعر ص ٨.

5- هو: أبوالحسن علي بن عيسى الرماني النحوي،المتوفي سنة ٣٨٤هـ، كان محباً للعلم، واسع الاطلاع. ينظر: بغية الوعاة، للسيوطي، بتحقيق: محمد أبوالفضل ٢/ ١٨٢: ١٨٠، ط. الحلبي، وأنباه الرواة للقوطي، بتحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم ٢/ ٢٩٤، دار الكتب.

فالبلاغة عنده في اللفظ والمعنى، ولا يرضى أن تكون في المعنى فقط ولا أن تكون في اللفظ فقط[١].

ثم جاء بعد ذلك الإمام الفاضل أبو هلال العسكري[٢]، فيرى أبو هلال العسكري أن الميزة البلاغية تكمن في اللفظ وأن المعاني موجودة، وملك لكل شاعر أو كاتب.

فيُحكى ما قاله الجاحظ قيل: "وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدويّ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسن وبهائه، ونزاهته، ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التي تقدمت"[٣].

ونجد أن أبا هلال العسكري لا يُهمل المعاني فنرى أنه يقول: "ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً، والألفاظ إذا اجترت قسراً، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور القصد"[٤].

1- النكت، ص ٦٩، وما بعدها ضمن ثلاث رسائل بتحقيق: محمد خلف الله أحمد وسلامة، طبع دار المعارف.

2- هو: أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد العسكري المتوفي سنة ٣٩٥هـ، أحد أعلام النقد والأدب في عصره، صاحب كتاب "الصناعتين – الكتابة والشعر"، ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٥٨/٨، طبع دار المأمون، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٥٠٦/١، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط. أولى، ١٩٦٤م، الحلبي.

3- الصناعتين ص ٥٧، ٥٨.

4- المرجع السابق، ص ٦١.

ومما سبق يتضح أن أبا هلال يرى أن الميزة كامنة في الألفاظ ولكن ليس من حيث وضعها اللغوي أو بمقارنته بلفظ آخر، ولكن يرى أن الميزة في الألفاظ التي تتكون منها الجملة من حيث اختيارها ورصفها وتأليفها ونظمها.

وذكر الخطابي[1]: أن "عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موصفه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[2].

فواضح أن الخطابي يرى بخصوص الألفاظ أن يكون اللفظ مستقراً في مكانه اللائق به الذي يتطلبه المعنى بحيث لا يريد به بدلاً، ولا يبغي عنه حولاً، فإذا لم يصادف اللفظ موقعه فسد معنى الكلام وذهب رونق البلاغة، وهذا المعنى قد سبقه إليه الجاحظ.

كما نجد أن الرماني فقد نقل عن الأخير صاحب "زهر الآداب" وصف البلاغة ومما جاء فيه: "وكانت كل كلمة قد وقعت في حقها،

1- هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ، من أعلام المحدثين، ومن كتاب الإعجاز الذين أسهموا في البلاغة العربية، ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٥٣/١، ٤٥٥، وبغية الوعاة: ٥٤٦/١، ٥٤٧.

2- إعجاز القرآن ص ٢٤ للخطابي.

وإلى جنب أختها حتى لا يقال: لو كان كذا في موضع كذا لكان أولى وحتى لا يكون فيه لفظ مختلف ولا معنى مستكره"[١].

ثم جاء الباقلاني[٢]، وقال: "فأمَا نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضلّ في وصفه"[٣].

واللفظ القرآني يتعلق فيه معنى كل كلمة بأخرى تعلقاً تاماً بحيث لو استبدلنا لفظ بغيره لاختلّ المعنى ونظم الكلام.

وللبلاغة العربية دورها في الألفاظ القرآنية كائتلاف اللفظ مع اللفظ ومراعاة النظير وتشابه الأطراف والتذييل أو الاحتراس والتكميل والإيجاز والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والتأكيد والحذف والذكر .. الخ من المعاني البلاغية، فاللفظ القرآني بديع النظم عجيب التأليف قمة الروعة والبلاغة لحد الإعجاز ...

ثم جاء القاضي عبدالجبار[٤]، ويرى بخصوص الألفاظ أن الميزة البلاغية أو الفصاحة لا تتعلق بالألفاظ من حيث ذواتها، فيرى أن الألفاظ لا تكون فصيحة في نفسها، وإنما تكون فصيحة بملاحظة

1- زهر الآداب وثمر الألباب للحصر ١/١٠٠، بتحقيق البجاوي، ط. أولى، ١٩٥٣م، دار إحياء الكتب العربية، وينظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. عبدالعزيز عرفة، ص ٢٤٩، ١٩٧٧م.

2- هو: القاضي أبو محمد بنالطيب بن محمد بن جعفر بنالقاسم المعروف بالباقلاني البصري، ت ٤٠٣هـ، ينظر: وفيات الأعيان ١/٤٠٠.

- إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٥، دار المعارف بتحقيق: السيق صقر.

4- هو: القاضي أبوالحسن عبدالجبار الأسد آبادي، قاضي قضاة الدولة البويهية المتوفي سنة ٤١٥هـ، ينظر: طبقات الشافعية ٣/١١٤، للسبكي، وينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/٢٠٢، ٢٠٣ مكتبة القدس.

صفات مختلفة لها، كالإبدال التي تختص به وحركاتها في الإعراب، وموقعها في التقديم والتأخير، ويقول:إن الدليل على أن الكلمة لا تتعلق بها الفصاحة من حيث ذاتها أننا نجدها فصيحة في موطن وغير فصيحة في موطن آخر"[1].

أمَّا المعاني فيرى القاضي عبدالجبار أنها لا تصلح أن تكون مقياساً للفصاحة وإن كان لابد منها والدليل على ذلك أننا نجد الشاعرين يعبران عن المعنى الواحد ويكون أحدهما أفصح من الآخر، وتظهر ميزة الكلام في ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة وهذه الطريقة تكون بالإبدال الذي تختص به الكلمات أو التقديم والتأخير الذي يختص به الموقع أو الحركات التي تختص بالإعراب[2].

ومما سبق يتضح لنا أن رأي القاضي عبدالجبار في الفصاحة تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في الصفة أن تكون بالمواضعة أو بالإعراب الذي له مدخل وقد يكون بالموقع.

وذكر الشريف الرضي[3]، أن الألفاظ خدمٌ للمعاني، وأنها تعمل في تحسين معارضها وتنسيق مطالعها[1].

1- المغني في ابواب التوحيد والعدل، إملاء القاضي عبدالجبار ١٩٩/١٦، بتحقيق: أمين الخولي، دار الكتب.

2- المغني ٢٠١/١٦.

3- هو: أبوالحسن حمد بن الحسين بن موسى الرضي الموسوي العلوي، المتوفي سنة ٤٠٦هـ، ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، ص ١١٤، بتحقيق: محمد عبدالغني حسن.

ثم جاء الإمام الفاضل عبدالقاهر الجرجاني[٢]. صاحب كتاب "الدلائل والأسرار" وما بهما من فضل عظيم وأثر جليل في البلاغة العربية وآراء جديدة وأفكار عظيمة لها قدرها، فوضح أن الفضل يعود إلى ارتباط الكلمات بعضها ببعض وما بين معانيها من اتصال وتلاؤم مثلاً قوله تعالى: {وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سمآء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين}[٣].

وضّح هنا الإمام أننا لم نجد ما وجدنا من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمرٍ يرجع إلى ارتباط هذه الكلمة بعضها ببعض وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة،وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها.

يقول: "إن شككت فتأمل وهل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي مكانها من الآية قل "ابلعي" واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها، وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بيا دون أن يقال "ابلعي" الماء، ثم إن اتبع النداء

1- تلخيص البيان ص ٢٢٨.

2- هو: أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وقيل سنة ٤٧٤ هـ، قيل أنه كان عالماً بالنحو والبلاغة وصنف تصانيف جليلة منها الدلائل، والأسرار، ينظر: أنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي، ١٨٨/٢، وينظر بغية الوعاة، للسوطي، ٢م٢٠٦.

3- سورة هود، آية ٤٤، ص ٣٦.

الأرض و أمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم إن قيل "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آخر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: {وقضي الأمر} ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو {استوت على الجودي} ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة {قيل} في الخاتمة "يقيل" في الفاتحة أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، ويحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟"[1].

ومن خلال الآراء القيمة للإمام الفاضل في الألفاظ القرآنية وروعتها فقد سمى بهذا الباب إلى الغاية المرجوة منه فقرر أن الميزة البلاغية تكمن في المعنى الذي تحدثه الألفاظ إذا ألفت على ضرب خاص من التأليف وترتيب معلوم، بحيث يقع ترتيب الألفاظ في الكلام على حسب ترتيب المعاني الخاصة بها في النفس، وهذه المعاني يكون ترتيبها في النفس حسبما يقتضي العقل، وأنكر أن يكون للفظ مزية في ذاته[2].

فوضح الإمام أن البلاغة ليست في اللفظة المفردة وإنما بضم كلمة إلى أخرى؛ لأن اللفظة المفردة لا يقع بينها تفاضل، ومما سبق

1- دلائل الإعجاز، ص ٣٧، وينظر ص ١٩٤، ١٩٥.
2- أسرار البلاغة، ص ٣ بتصرف.

نجد أن الإمام أجاد في ذلك وابتكر وكانت له يد طولى في إبداع اختيار اللفظة بتوضيح ذلك من الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فوضح أن للفظ قيمته، والمعنى له خطره وجلاله. وكل ذلكمستمد من القرآن الكريم

فكان للإمام اليد الطولى في بيان قيمة اللغة بنظرية النظم وكل تصرف في النظم لابد أن يحدث بلاغة في الكلام بشرط إجازته لقواعد النحو المعروفة.

ثم جاء بعد عبدالقاهر الجرجاني الزمخشري[1]، والزمخشري لم يكتب كتاباً مستقلاً خاصاً بالبلاغة، بل أورد كثيراً من الأسرار والنكات والدقائق البلاغية التي يتضمنها نظمه المعجز وذلك أثناء تفسيره للقرآن الكريم فقد ابتدأ من حيث انتهى من سبقه وقد عبر عن "علم النظم" بعلمي المعاني والبيان: يقول:

"إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يُبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإحالة النظر فيه كل ذي علم"[2].

1- هو: أبوالقاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري كان واسع العلم كثير الفضل غاية في الذكاء متفننا في كل علم، توفى سنة ٥٣٨هجرية له تصايف بديعة، منها: الكشاف في تفسير القرآن العزيز، ينظر: ابن خلكان ٢٥٤/٤، وبغية الوعاة ٢٧٩/٢، وأنباه الرواه ٢٦٥/٣.

2- الكشاف للزمخشري ١/ ص ك من المقدمة، ط ثانية، ١٩٥٣م.

وللإمام الزمخشري فضل في فتح الطريق للنظر في إيحاءات الألفاظ ودقة الكلمات وخلو الأسلوب من التناقض، ومناسبته لمقتضى الحال، ففي قوله تعالى في سورة الفاتحة:

"إن العبد إذا فتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله: (الحمد لله) الدالّ على اختصاصه بالحمد، وأنه حقيق به وجد من نفسه لا محالة محركاً للإقبال عليه، (رب العالمين) الدال على أنه مالك العالمين فلا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته .. الخ"[1].

هذا ومما سبق نجد أن صفحات الأقدمين كلها مشرقة في البلاغة التعليمية وفي إبداع اللفظة وكيفية اختيارها وسيرها في مسارها الطبيعي.

فقد وضّح الأئمة السابقين أن للبلاغة حدودها ورسومها وبخاصة الألفاظ وإبداعها وما لها من إشراقة وجمال ورونق وبهاء يكتمل بالمعنى وهنا نستنتج من كلام الزمخشري مثله مثل السابقين أننا حين نقرأ نصاً ما قد نحكم عليه بالجودة والرقة أو بغير ذلك، وقد يأتي هذا الحكم بناء على حُسن اختيار الألفاظ التي تتفق مع معانيها وتعبر عنه أدق وأرق تعبير من حيث القوة والكثرة أو العذوبة والسهولة والجزالة لا تتعارض مع عذوبة الألفاظ ورقتها

1- الكشاف للزمخشري ١٠/١.

من حيث قوتها ورصانتها كما أن الرقة لا تتعارض مع مكانة الأسر وقوة النسج"[١].

ثم جاء بعد ذلك الإمام الرازي[٢]، يرى الإمام إن مزية الكلام في الحُسن والجمال تارة بسبب الكتابة وتارة أخرى بسبب اللفظ من حيث الدلالة الوصفية الأصلية،وتارة بسبب اللفظ من حيث الدلالة المعنوية الفرعية.

ومما سبق من تقسيمات وتفريعات لإبداع اللفظ نجد أن الإمام أخذ كلام عبدالقاهر الجرجاني وضبط فيها قواعد البلاغة، وحصر فروعها حصراً دقيقاً، وراعى الترتيب مع التهذيب وجمع متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب عن الإطناب المملّ والاحتراز عن الاختصار المخلّ[٣].

وقد أكمل التقسيمات والتفريعات السكاكي[٤]. فقد كشف عن وجوه البلاغة والفصاحة[٥] المعنوية واللفظية في الآية الكريمة

1- البيان القرآني د. محمد رجب البيومي، ص ٣٠، ٣١، مجمع البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، الكتاب الواحد والثلاثون، ربيع الثاني، ١٣٩١هـ.

2- هو: أبو عبدالله فخر الدين محمد بن عمر بن الرازي، الخطيب الشافعي، ولد سنة ٥١٤ هـ، وتوفى سنة ٦٠٦هـ، بمدينة هراة، ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣٨١/٣، ٣٨.

3- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ٥ مطبعة الآداب، ١٣١٧هـ بمصر.

هو: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي أبو يعقوب السكاكي سراج الدين الخوارزمي ت ٦٢٦هـ، إمام في النحو والتصريف والمعاني والبيان والاستدلال والعروض والشعر، وله كتاب مفتاح العلوم، ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، ٣٦٤/٢.

5- مفتاح العلوم ص ١٧٦، ١٧٨ الطبعة الميمنية.

{وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سمآء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين}.

وقد سبق للإمام عبدالقاهر الوقوف أمام هذه الآية الكريمة، وكشف فيها عن روعة النظم[1].

وقد وضح السكاكي من خلال تلخيصه لعلمي البلاغة والمعاني والبيان إبداع اللفظة القرآنية وإن كان قد رتب المسائل البلاغية ترتيباً قائماً على أساس منطقي مع استيفائه لجميع المسائل البلاغية موضحاً أقسامها وتعاريفها وحدودها وأضاف إليها فوائد وزوائد، وإن كانت البلاغة به أصبحت متحجرة فيها تفريعات قريبة من المنطق.

كما أن المحدثين قد طرقوا هذا الموضوع وذكروا فيه نكات لها قدرها في البلاغة، فنرى الدكتور فتحي عامر يقول: "إن الكلام يتبين فضله ورجحان البلاغة فيه بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام كثير فتأخذها الأسماع، وتتشوق إليها النفوس، ويرى وجه رونقها بادراً غامراً سائراً ما تقرن به كالدرة التي ترى في سلك من خرز وكالياقوتة في واسطة العقد"[2].

وإذا أردنا أن نطبق هذا عملي على سورة رائعة من سور القرآن الكريم ألا وهي سورة الصافات، نجد أن لكل كلمة دلالة خاصة، ونسق عجيب، ونظام فريد بديع، وإيحاء مثير، ونسلم حينئذ

1- مفتاح العلوم ١٧٩ – ١٨٢.

2- ينظر: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. فتحي أحمد عامر، ص ٣٤، ط ١٣٧٥هـ.

بأن آيات وكلمات القرآن الكريم فوق مستوى البشر، ودونها أنماط التعبير الأخرى، فالمعاني دليل الألفاظ وخدم لها، كما وضح ذلك الإمام عبدالقاهر الجرجاني.

ولا يفوتنا أن نذكر التعبير الدقيق الذي يدل على فطانة المتكلم ويكشف ألواناً من الأسرار والدقائق والحذق والتمكن من نظم التركيب اللغوي العجيب. واللفظ في القرآن الكريم يشير ويحوي إلى معنى المعنى، فانظروا معي إلى بداية سورة الصافات، قال تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا .. الخ"[1].

فلكل كلمة في السورة دلالة خاصة يكشف عنها وضعها في النسق ثم أنها تختل مع التغيير والتبديل، فقوله {والصافات} توحي بما لا يوحي به غيرها، فقد وقع الوصف فيها بالمعنى الذي أريد به أنه وصف للملائكة وعطفها بالفاء يقتضي أن تلك الصفات ثابتة لموصوف واحد؛ لأن الأصل في العطف بالفاء اتصال المتعاطفات بها لما في الفاء من معنى التعقيب فنجد العطف بالفاء كما وضح الإمام عبدالقاهر أن الجملة المعطوفة بالفاء لا على التي تليها مباشرة بل على التي تسبقها، والذي حسّن ذلك أن الجملة الفاصلة ترتبط بالأولى ارتباطاً يجعلها كأنها جزء منها، وقد ترى جملتين قد عطفت إحداهما على الأخرى، ثم جعل مجموعها شرطاً كقوله تعالى:{وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }[2].

1- الصافات، الآيات ١، ٢.

2- النساء، آية ١١٢، والدلائل ١٨٩ وما بعدها.

وبالدراسة التطبيقية الممتعة للقرآن الكريم ومعرفة استعمالات ألفاظه تضفي وضوحاً وتكشف سر الإعجاز القرآني وسموّ وإبداع وروعة اللفظة القرآنية لها إبداعها عن كل كلام آخر مهما كان مبلغه، كما وضح رب العزة ذلك: { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }[1].

فكل كلمة استعملت استعمالاً دقيقاً ووضعت مستقرة في مكانها مستقلة في بنائها ووزنها وجرسها فريد. وبناء عليه ظهر في القرآن الكريم كله جزالة ورقة ليس لها مثيل وذلك بناء على حُسن اختيار الألفاظ التي تتفق مع المعاني، فنجد أن جرس حروف الكلمة ووقعها يشتركان في تصوير المعنى أدق تصوير[2].

وأيضاً من خلال ما سبق نجد أن القرآن الكريم يستعمل الألفاظ القوية وذلك عند حديثه عن وعيد الكافرين، فانظروا إلى قوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }[3]؛ فالألفاظ في الآية في قمة القوة والزجر والقرع والقوة للتحذير من النار والتهويل من شأنها. فالآية تصور لنا مشهداً عنيفاً مما أعد للكافرين يوم القيامة، فالحشر للكافرين ولأتباعهم جميعاً، واستعمل هنا {فاهدُوهُمْ} بفاء التعقيب إشارة إلى سُرعة الأمر لهم إلى النار عقب ذلك الحشر، فالأمر

1- هود، ١.
2- ينظر: الأقصى القريب في علم البيان، التونوخي، ص ٨٦، ط. السعادة، ١٣٢٧هـ.
3- الصافات ٢٢، ٢٣.

بالأصالة في القرآن الكريم وذكر {اهدوهم} هنا تهكم بالمشركين كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قراكـــــم
قبيل الصبح مراده طحونا[١]

وكذا استعمل في الصيغة المبالغة في قوله في السورة التي بين أيدينا: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ }[٢]، والاستكبار شدة الكِبْر والسين والتاء للمبالغة.

وأيضاً يأتي سبحانه بالتفريع على الأخبار المتعلقة بأحوال الآخرة، في قوله: { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ }[٣]؛ فجيء هنا بصيغ الفعل الماضي مع أنها مستقبلة لإفادة تحقيق وقوع ذلك حتى كأنه قد وقع على نحو قوله تعالى: {أتى أمر الله} وحذف المتساءل عنه لدلالة ما بعده عليه.

فانظروا معي إلى بلاغة وجمال وقوة الألفاظ وإبداعها وحُسن اختيارها لتؤدي ما سبقت له من معان، فنجد أن هذا مما تفرّد به القرآن الكريم وحده، وكأنما القرآن الذي من نفس الحروف العربية المعروفة فوق كل كلام، فنظام القرآن يختلف عن أي نظام آخر كما وضح ذلك صاحب إعجاز القرآن[٤].

١- التحرير والتنوير ١٠٢/٢٢.
٢- الصافات، ٣٥.
3- الصافات، ٥٠.
4- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص ٢٢٦، ٢٢٧، طبعة ١٩٨٨

الفصل الثاني

استعمال الكلمة للتسلسل البديع والجرس الجميل

علا القرآن الكريم على كلام البشر، فشتّان بين كلام ربّ العزّة،وكلام غيره، وشتان بين بلاغة القرآن الكريم وغيرها. فبلاغة القرآن كل حرف وكلمة وجملة نجدها هدى وهداية وغاية، وكلام البشر وسيلة فقط، وهنا أوردنا التسلسل البديع في القرآن الكريم والمُراد به التسلسل الدقيق بين آيات القرآن والسمات الخاصة المشتملة عليها سور القرآن سواء كان الحديث عن الهداية أو النفع أو تشريعات أو أحكام أو جنة أو نار.. كل ذلك بمعاني بلاغية من تقديم وتأخير، فصل ووصل، إيجاز وإطناب، ومساواة، تشبيه تمثيل، مجاز استعارة، أو معانٍ بديعية .. كل ذلك بصلات تربط بين الموضوعات المختلفة.

وإذا أردنا أن نطبق ذلك على السورة التي بين أيدينا نجد أن الفكرة الرئيسة فيها هي وحدانية الله تعالى فهذا المعنى ربط بين جميع آيات السورة الكريمة في تسلسل عجيب ونسق غريب لا يصل إليه بشر كائناً ما كان وكذا إثبات البعث، والعقاب والثواب، الجنة والنار، ولا تخرج هذه السورة عن هذا المعنى البديع إلا لحكمة اقتضاها المقام، وكل ذلك يندرج تحت وحدة واحدة وتناسق وترابط

وإخاء بديع بين كل كلمة وأخرى وكل سورة وأختها كما قيل!! حتى أنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها[1]!!.

ونجد أن الأساس الذي تُبنى عليه هذه السورة الكريمة وحدة الألوهية لذا بدأ سبحانه البداية الرائعة المناسبة التي تأخذ الألباب وتحار فهيا العقول تشوقاً لسماع بقية السورة قال تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ}[2].

وإذا نظرنا إلى بداية السورة الكريمة نعلم أن في كل شيء علامة تدل على أن الله سبحانه واحد أحد فرد صمد {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[3].

ففي الآيات السابقة أقسم سبحانه بالملائكة لإثبات الألوهية والوحدانية. فالملائكة من جملة المخلوقات الشريفة والتي يدلّ خلقها على عظم الخالق وإعلان صريح بتوحيد رب العزة .. كل ذلك في تسلسل بديع وجرس لا يخفى على السامع.

وتستشعر جمال وحلاوة السورة من خلال آياتها الأولى القوية، وحين نقرأ الفصل الثالث من هذا البحث: البيان في النص، نجد أن الوحدة والتسلسل الدقيق مع لفظ قوي ورشيق غاية في البهاء، انظروا معي إلى قوله تعالى في نفس السورة على لسان الكفار:

1- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر عوض الألمعي، ط. الفرزدق، الرياض.
2- الصافات، الآيات من ١ : ٥.
3- الإخلاص، ٣، ٤.

{ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ *أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ *قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ *فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ}[1].

انظروا معي إلى جمال ألفاظ الآيات السابقة التي استعملها النظم القرآني وقد جاءت بلفظها وجرسها وبنائها ووزنها، لها وقع مع معانيها ولا يصلح لغيرها مؤداها فقوله: {لمبعوثون – أو آباؤنا الأولون – داخرون – زجرة – ينظرون} جاءت هذه الكلمات بصورتها وصيغتها وهيئتها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، فقد صورت الآية الحالة النفسية التي كان عليها الكفار من إنكارهم للبعث واستنكارهم أن يُفعل بآبائهم هكذا، وكان ردّ القرآن الكريم رادعاً صريحاً لكل من تسوّله نفسه للعمل مثل هؤلاء الكفار بقوله: {قل} فعل أمر ثم أثبت ذلك بقوله: {نعم} وكذا بقوله: {داخرون} بعد الزجرة الواحدة مباشرة. فالآيات تصور غبائهم وجهلهم المركّب وذلك لاستنكار البعث، وكذا الآيات الكريمة توضح عدم تمكنهم من قولهم وشكهم في أمرهم.

فمما سبق نجد التسلسل البديع والصياغة الرائعة والوحدة الجميلة، فهذا هو كلام رب العزة الذي أعجز البشر فهم كل ما جاء فيه من معانٍ كثيرة في جملة قليلة أدت ووقت، أحسنت فأبدعت. وانظروا معي إلى قوله تعالى حين يرون العذاب، ويبدو الندم عل ما حدث يوم لا ينفع الإنسان إلا ما قدمت يداه: {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ *هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ *احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا

1- الصافات ١٦:١٩.

وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ *مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }[1].

ما أبدع كلام رب العزة في الصياغة والجرس والبناء والمضمون وكذا في المعنى المراد، وما أجمل تلك العبارات والكلمات التي استخدمت للدلالة على الحدث حتى أن غيرها لا يحلّ مكانها فمثلاً {ويلنا – يوم الفصل – احشروا – فاهدوهم} فهنا تأكد الكفار أنه لا محالة من وجود البعث والويل لهم والدمار حين جاء اليوم الذي فصل بين الحق والباطل وقد أمر الله تعالى الملائكة بالحشر للذين ظلموا وكذا أزواجهم قرنائهم في غيهم وكبرهم وكفرهم، وحين نسمع كلمة {فاهدوهم} للحظات قليلة يطمئنون إلا أنهم حين يصلون إلى ختام الآية تكون الصدمة أكبر والوقع أشد والمعنى أفظع والحسرة حين الوقوف بين يدي الحي القيوم للسؤال فهنا لكل كلمة دلالتها وذلك من خلال الصيغة الجميلة والبناء الرائع والجرس البديع. ثم ختم السورة الرائعة بقوله: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ *وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[2]. ونجد أنه سبحانه وصف نفسه برب العزة المُختص بها دون غيره، المنزه عن كل وصف، فنجد أن الختم مناسباً للبداية وملائماً له مع روعة اختيار الكلمات، وبنائها وجمال وقعها وكانت الخاتمة خلاصة للسورة كلها، وما سبق فيها من معانٍ جميلة {وسلامٌ على المرسلين} وهو تأييد لرسله جميعاً و {الحمد لله رب العالمين} ففي

1- الصافات ٢٠ : ٢٣.
2- الصفات آية ١٨٠ : ١٨٢.

الآيات السابقة جزالة ورقة وقوة في استعمال الكلمات مع المرسلين لتثبت شجاعتهم، وأنهم على الحق فيما اتبعوا {وسلام} أتى به نكرة للتعظيم والتفخيم وختم ب{الحمد لله} صاحب العزة والقدرة رب الأرباب {رب العالمين} الحقيق بالشكر والحمد والمنة كما هي عادة القرآن في الخاتمة البديعة والبداية الرائعة.

الفصل الثالث

البيان في النص

قال تعالى{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}[1]

[و{الصافات} جمع صافة وهي الطائفة المصطف بعضها مع بعض، يقال: صف الأمير الجيش، متعدياً إذا جعله صفاً واحداً أو صفوفاً فاصطفوا، ويقال: فصفوا أي صاروا مصطفين، فهو قاصر، وهذا من المطاوع الذي جاء على وزن فعلة مثل قول العجاج: "قد جبر الدين الإله فجبر"[2]].

وفي قوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}[3]، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ }[4].

{فالزاجرات زجراً}: والزجر: الحث من نهي أو أمر، والمراد به تسخير الملائكة المخلوقات التي أمرهم الله تعالى بتسخيرها خلقاً، أو فعلاً كتكوين العناصر، وتصريفهم الرياح"[5].

{فالتاليات ذكراً}: قيل هم المرددون لكلام الله تعالى الذي يتلقونه من جانب القدس لتبليغ بعضهم بعضاً أو لتبليغه إلى الرسل، ويبينه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً نقوله كأنه سلسلة على

1- الصافات، ١ : ٣.
2- التحرير والتنوير ٢٣/ ٨٤.
3- الحج، ٣٦.
4- الملك، ١٩.
5- التحرير والتنوير ٢٣/٨٤.

صفوان فإذا فزع عن قولهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الذي قال الحق)[١].

والمراد بالتاليات ذكرا: ما يتلونه من تسبيح وتقديس لله تعالى[٢].

والمراد بالذكر هنا ما يتذكر به من القرآن ومنه قوله: {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}[٣]. وهو تنويه للتفخيم[٤].

البيان في الآيات السابقة:

انظروا معي إلى روعة وجمال بداية السورة، والسورة كلها، فقد كان مناسباً افتتاحها لأغراضها، فقد أقسم الله سبحانه بالملائكة لإثبات وحدانيته الله جل وعلا؛ لأن من تخدمه الملائكة لابد وأن يكون إلهاً حقاً والملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق. ويوضح القسم بأنها من أشرف المخلوقات العلوية.

{والصافات} مناسبة لعظمة الله الواحد القهار، ولقد أقسم سبحانه بـ {الصافات} لما فيها من دلائل القدرة والقسم بالشيء إعظام لهذا الشيء، وقيل أقسم بها وخصها بالذكر لأنها في حالة طيرانها تكون بين السماء والأرض فهي خارجة من جملة من في السموات والأرض[٥].

1- التحرير والتنوير ٨٤/٢٣.
2- التحرير والتنوير ٨٤/٢٣، ٨٥.
3- الحجر، ٦.
4- روح المعاني ٦٤/٢٣.
5- البحر المحيط ٤٦٣/٦، لأبي حيان الأندلسي، ط٢، دار الفكر.

{والزاجرات} تناسب قذف الشياطين عن السموات ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضاً،ويناسب زجرها الناس كما قيل في المحشر.

{فالتاليات ذكراً} يناسب أحوال الرسل وما أرسلوا به إلى أقوامهم وكذا الرسول صلى الله عليه وسلم كما أن الافتتاح بالقسم فيه تشويق لمعرفة المُقسم عليه، فلقد استكملت السورة العظيمة القدر أحسن وجوه البيان ما أجملها وأكملها[1].

وقد جيء بالقسم هنا لتأكيد الخبر؛ لأن القسم واحد، والمقسم به نوع واحد مختلف الأصناف وهم "الملائكة"، وحكم الفاء العاطفة للصافات هنا لتعاقب وقوع الصافات وجوداً، كقوله: الصلوات وصفوت الجماعات، فالزاجرات بالمواعظ، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه، أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصفّ الصفوف، وتزجر الخيل ومثل حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصافات أن تدل على ترتيب معانيها في الوجود كقوله:

يا لهف زيابه للحرث الصـ

ـابح فالغام فالآيـــــــب

يريد هنا صفات للحارث ووصفه بها تهكماً به، وأما ترتيبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك خذ الأفضل فالأكمل،وإما على ترتيب موصوفاتها ذلك كقوله: (رحم الله المحلقين فالمقصرين).

1- التحرير والتنوير ٢٣/٨٢، ٨٣.

فإن وجدنا الموصوف كان للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل وإن ثلث فهو للدلالة على ترتب الموصوفات فيه[١].

قيل: إن المقسم به هنا هو خالق الأشياء لا أعيان هذه الأشياء واحتج عليه:

أولاً: أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله[٢].

ثانياً: أن الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم للمخلوقات، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بكمال الله تعالى.

ثالثاً: أن الذي ذكرناه تأكد بتصريحه به "تعالى" في بعض السور مثل قوله: {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }[٣].

وقيل: إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء، واحتج عليه بوجوه:

أولاها: أن القسم وقع لظاهر هذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل.

الثاني: في قوله {والسماء وما بناها} علق سبحانه لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه المقسم وهو الباني للسماء، فلو كان

1- الكشاف ٣٣٤/٣، التحرير والتنوير ٨٤/٢٣.

2- الحديث هو: "عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر رضي الله عنه وهو يسير في ركب، يحلف بأبيه فقال: (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) ينظر: شرح فتح الباري على صحيح البخاري، لابن حجر، كتاب الإيجار والنذر، جـ١١، ص ٥٣٠، دار المعرفة.

3- الشمس، الآيات ٥ : ٧.

المراد بالقسم بالسماء مباني السماء لزم التكرار في موضع واحد ولا يجوز.

الثالث: قد تكون الحكمة من قسمه تعالى بهذه الأشياء؛ التنبيه على شرف ذواتها لا سيما لو حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فقد تكون الحكمة التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها[1].

ولمَّا وصف سبحانه الملائكة بالوصف السابق سواء كان الوصف على الحقيقة أو عن الاستعداد لامتثال ما يلقى إليهم من أمر الله تعالى، قال تعالى حكاية عنهم في هذه السورة التي بين أيدينا:

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}[2].

وفي قوله {فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكرا} جيء بالفاء لترتيب معطوفها إما أن يكون ترتيباً في الفصل بأن يُراد أن الزجر وتلاوة الذكر أفضل من الصف أو أن تلاوة الذكر أفضل من الزجر باعتبار ما فيها من إصلاح المخلوقات[3].

أو ما تشتمل عليه التلاوة من تمجيد الله تعالى، فالأعمال تتفاضل أحياناً بتفاضل متعلقاتها[4]، قال تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ}[5]: جواب للقسم على عادة العرب من تأكيد ما يهتم به بتقديم القسم، ومناط التأكيد صفة "الواحد" أي هو واحد لا متعدد فإذا بطل

1- الفخر الرازي ١١٧/١٣.
2- الصافات: ١٦٥، ١٦٦، والتحرير والتنوير ٨٤/٢٣.
3- التحرير والتنوير ٨٥/٢٣.
4- السابق.
5- الصافات، ٤.

تعدد تعين انحصار الألوهية في ربٍّ واحد هو الله سبحانه وتعالى[1].

لما ذكر سبحانه ما سبق ذكرما بعده كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً وهو قوله تعالى: { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ }[2]. ووجود هذه الآية على هذا النمط البديع أوضح دليل على وحدته عز وجل[3].

وجوّز أبي البقاء كونه بدلاً من "واحد" قيل: ويدخل في عموم الموصول أفعال العباد فتدل الآية مع أنها مخلوقة له تعالى ولا ينافي ذلك كون قدرة العبد مؤثرة بإذنه عز وجل[4].

قال تعالى: {رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق}: قيل يُحتمل أن يراد مشارق الشمس، قال السدي: "والمشارق ثلثمائة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب فالشمس تطلع كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب ويُحتمل أن يراد مشارق الكواكب، لأن لكل كوكب مشرقاً ومغرباً"[5].

قيل: وقداكتفى بذكر المشارق لأمرين هما:

1- روح المعاني ٦٦/٣، والتحرير والتنوير ٨٥/٢٣، ٨٦، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢٥٩/٧.
2- الصافات ٥.
3- روح المعاني ٦٧/٤.
4- روح المعاني٦٧/٣.
5- الفخر الرازي ١١٨/١٣.

أولاً: أنه اكتفى كقوله {تقيكم الحر}[1].

ثانياً: أن الشروق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعاً فذكر الشروق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده؛ ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام:{ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ }[2].

وقوله سبحانه: {رب السموات والأرض} خبر لمبتدأ محذوف جرى حذفه على طريقة الاستعمال في حذف المسند إليه من الكلام الوارد بعد تقدم حديث عنه كما ذكر صاحب المفتاح[3].

وقد خصص {المشارق} لأنها أحوال مشهورة كل يوم، وأعاد سبحانه {رب} في {رب المشارق} لغاية ظهور آثار الربوبية.

وما سبق من آيات دالة على وحدانية الله تعالى سواء الذات وتجددها كل يوم[4]. أو الصفات والألوهية كانت هذه القضايا مثار جدال عنيف وتحد وخصومة من قبل المترفون من كفار الأمم خوفاً على سُلطانهم أن يزول. فنجد القرآن الكريم حكى أقوالهم منسوبة إليهم اسماً ظاهراً أو ضمير جمع، وقد ذكرت في الأعم الأغلب بصيغ الخبر المؤكدة.

ولم ينحصر ردود القرآن في مدى الاستفهام بل اتسع ليشمل عديداً من الأساليب وطرق الأداء وأجناس القول من قصص متعددة

1- سورة النحل آية ٨١.
2- سورة البقرة آ ٢٥٨، وينظر: الرازي ١١٨/١٣.
3- ينظر: الإيضاح مختصر تلخيص المفتاح، الخطيب ص ٢٢، دار الفكر العربي.
4- روح المعاني ٦٨/٢٣.

الصياغات والمناسبات فنجد: الأقسام المتوالية المتعددة بآيات الله منيرة كقوله تعالى:

{ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا *فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا *إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ }[1].

ومما سبق نجد أن الآيات السابقة تنطق بالتحدّي من قبل جبّار قوي، فما أروع الحذق في الآيات السابقة وما أروع النظم فلكل آية دلالة خاصة وإيحاء بديع وتسلسل عجيب .. فكل موضع يترابط فيه السابق باللاحق ويسمو في التأليف إلى أرقى مراتب الإعجاز .. فكل ما سبق دليل وبرهان على وحدانية الله عز وجل.

قال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ }[2].

وضّح سُبحانه أنه زيّن السماء الدنيا وذلك لمنفعتين للعباد هما:

أولاً: تحصيل الزنية.

والثانية هي: الحفظ من الشيطان المارد.

فالزينة تحصيل بالنور، والضوء، والأشكال المتناسبة المختلفة، وقد قيل: أن الزينة تحصل في كيفية طلوعها وغروبها، أو أن

1- ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص ١٣١، ١٣٢ بتصرف، د. صباح عبيد، ط أولى ١٩٨٦م، مطبعة الأمانة مصر.

2- الصافات ٦، ٧.

الإنسان إذا نظر إليهما في الليلة المظلمة يجدها مشرقة لامعة متلألئة على سطح أزرق. وكل ذلك يفيد أنها زينة ولا شك في ذلك.

وفي قوله {وحفظاً من كل شيطان مارد} أي تمرّد على الله ويؤده: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ }[1].

قيل: إن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب وكانوا يخبرون به ويوهمون أنهم يعلمون الغيب، فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم [2].

والكواكب هي الكريات السماوية التي تلمع في الليل عدا الشمس والقمر، وتسمّى النجوم وهي أقسام منها العظيم ومنها دون ذلك، ومنها الكواكب السيارة ومنها الثوابت، ومنها قطع تدور حول الشمس ومنها من هي زينة للسماء في الليل.

وإضافة زينة إلى الكواكب إن جعلت زينة مصدراً بوزن "فعله" مثل نسبة كانت من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله أي بزينة الله للكواكب. وإن جعلت زينة اسماً لما يتزين به مثل قولنا: ليقه لما تلأق به الدواة فالإضافة حقيقية على معنى من الابتدائية أي زينة حاصلة من الكواكب.

1- سورة الملك، آية

2- الفخر الرازي ١٢٠/٢٣.

والدنيا من الأدنى، أي القربى، وهو وصف مؤنث ووصفت بالدنيا؛ لأنها أدنى إلى الأرض من بقية السموات وهي الكرة التي تحيط بكرة الهواء الأرضية وهي ذات أبعاد عظيمة[١].

البيان في النص:

جاء بلفظ زينة هنا تأكيداً لذلك، والباء للسببية أي: زينا السماء بسبب زينة الكواكب فكأنه قيل: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب تزييناً، فكانت بزينة الكواكب في قوة الكواكب،وقوله {بزينة} مصدر مؤكد لفعل زيّنا في المعنى، ولكن حول التعلق فجعل {زينة} هو المتعلق بـ {زينا} ليفيد معنى التعليل ومعنى الإضافة في تركيب واحد على طريق القرآن الكريم بالإيجاز فقصد معنى التعليل ومعنى الإضافة في تركيب واحد على طريق القرآن الكريم بالإيجاز فقصد معنى التعليل والتوكيد معاً، والإيجاز مطابقاً لمقتضى الحال والسامع على علم به فلذلك كان جميلاً حسنا، وقرأ {بزينة} على التنوين ونصب الكواكب على الاختصاص بتقدير أعني[٢].

وقيل بالجر بدل من {زينة} بدل كل على أن المراد بها الاسم أي ما يُزان به لا المصدر، فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة[٣]:

فكأن أجرام النجوم لومعـــاً
درر نثرن على بساط أزرق[١]

1- التحرير والتنوير ٢٣/٨٧، ٨٨.
2- التحرير والتنوير ٢٣/٨٨، ٨٩.
3- روح المعاني ٢٣/٦٨.

والمقصود من التشبيه الهيئة العجيبة التي تنطق بذكر الله عز وجل.

{وحفظاً من كل شيطان مارد} عطف على معنى {إنا زينا السماء الدنيا}، وهو إنا خلقنا الكواكب من السماء الدنيا زينة للسماء[٢].

وقيل {بزينة" عطف بيان، وعطف البيان يجب فيه الفصل؛ لأن البيان: مبين موضع للمبين، ولذا وجب الفصل لأنهما كالشيء الواحد، فالجملة الأولى بها خفاء وإبهام، فأتت الجملة الثانية لتكشف هذا الخفاء وتزيل الإبهام لاقتضاء المقام إزالة هذا الخفاء. و{بزينة الكواكب} بالإضافة على أنها بيانية.

ويجوز أن تكون لامية على أن الزينة للكواكب أضوائها وأوضاعها.

ويجوز أن تكون {زينة} مصدر كالنسبة وإضافتها من إضافة المصدر إلى مفعوله أو إلى فاعله واحتمال أن يكون {الكواكب} بدلاً من {السماء} بدل اشتمال وكذلك بدل الاشتمال يجب فيه الفصل؛ لأن الجملة الثانية أو في من الأولى ففصل بين الجملتين لما بينهما من شدة الاتصال، واشترط الضمير معه للمبدل منه إذ لم يظهر اتصل

1- وهو قول أبو طالب الرقي، ينظر: نظرات في البيان، د. عبدالرحمن الكردي، ١٩٨٣م، والنسب مذكور في: أسرار البلاغة ٨٠/٢، المفتاح ص ٣٣٧، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ٢٠٦، المصباح ص ١٠٧، الإشارات والتنبيهات ص ١٨٠.
2- الإتقان في علوم القرآن ٣٢٠/٢، ٣٢١.

أحدهما بالآخر كما قرروه في قوله تعالى: { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ *النَّارِ }[1].

{لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ *دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ *إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ }[2].

أي: لا يتسمعون، وهذا أصله فأدغمت التاء في السين، وضمير الجمع لكل شيطان؛ لأنه بمعنى الشياطين وقرأ "لا يسمعون" بالتخفيف، والملأ جماعة يجتمعون على رأي فيملؤون العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء.

والمراد بالملأ الأعلى: الملائكة عليهم السلام كما روى عن السدي أنهم في جهة العلو ويقابله الملأ الأسفل وهم الإنس والجن؛ لأنهم من جهة السفل. وروي عن ابن عباس أنهم أشراف الملائكة عليهم السلام. وفي رواية أخرى على أنهم كتابهم، وجوّز ابن المنير كونها صفة والمراد حفظ السموات لا يسمع أو لا يسمع بسبب الحفظ وقيل: هو نظير: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا }[3]. وسخر لكل الليل والنهار {وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ }[4].

{يقذفون} بالبناء للفاعل ولعل الفاعل الملائكة وجوز أن يكون الكواكب {دحوراً} مفعول له وعلة القذف الدحور أي الطرد والإبعاد

1- سورة البروج، آية ٤، ٥، وينظر: روح المعاني ٦٨/٢٣.
2- الصافات ٨ : ١٠.
3- المؤمنون آية ٤٤.
4- الأعراف ٥٤.

أو مفعول مطلق لـ {يقذفون} وذلك لتنزيل المتلازمين منزلة المتحدين فيقام دحوراً مقامه قذفاً، أو {يقذفون} مقام {يدحرون} وعلى التقديرين هو مصدر مؤكد أو حال من ضمير {يقذفون} على أنه مصدر باسم المفعول على القراءة الشائعة وهو في معنى الجمع لشموله للكثير أي مدحورين وجوز كونه جمع داحر بمعنى مدحور كقاعد وقعود، وجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض وهو الباء على أنه جمع دحر كدهر ودهور، ويحتمل أن يكون صفة كصبور لموصوف مقدر أي قذفاً دحوراً طارداً لهم.

{ولهم} أي في الآخرة، {عذاب} آخر غير ما في الدنيا من عذاب الرجم بالشهب.

{واصب} أي دائم، كما قال قتادة وعكرمة وابن عباس لأبي الأسود:

لا أشتري الحمد القليل بقاؤه
يوماً بذم الدهر أجمع واصباً

وقد فسره البعض بالشديد[1]. وذلك كقوله تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ }[2]. والخطفة المرة وذلك لبيان عدد مرات المصدر أيّ خطفة واحدة، وأتبعه بمعنى تبعه، والشهاب القبس والحمر من

1- روح المعاني ٢٣/٧٠، ٧١.
2- سورة الملك، آية ٥.

النار. و"الثاقب" هو الخارق، وعن ابن عباس الشهاب لا يقتل الشيطان الذي يصيبه ولكنه يحترق ويخيل[١].

البيان في النص:

في قوله تعالى: {لا يسّمعُون} بياناً لكيفية الحفظ فتكون الجملة في موقع عطف البيان من جملة {وحفظاً} على حد قوله: { فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قال يا آدم}[٢]. وقيل: قد يكون ادعائي للمبالغة في نفي سماعهم[٣].

وقيل: إن وجه المبالغة أنه يلزم من نفي الإصغاء نفيه بالطريقه الأولي والتهويل لأنهم إذا كانوا مع اصفائهم لا يسمعون يدل على مانع عظيم ودهشة تذهلهم عن الإدراك[٤]. وذكر العز أن الآية من مجاز التضمين؛ لأنه ضمن معنى لا يصفون[٥].

وحرف {إلى}: على قول الكشاف يفيد الإصغاء مع الإدراك[٦].

ووصف {الملأ}: بالأعلى لتشريف الموصوف[٧].

1- تثبتي من الحديث عن أبن عباس " جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه " ينظر تفسير أبن كثير ١٤ص٥ دار المعرفة

2- الأعراف، آية ٢٠.

3- روح المعاني ٦٩/٢٣، البحر المحيط ٣٥٤/٤، وحاشية الشهاب ٢٦١/٧

4- ينظر: حاشية الشهاب ٢٦١/٧، والكشاف ٣٣٥/٣.

5- ينظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين بن عبدالسلام، ص ٧٥، ط دار الفكر، دمشق.

6- الكشاف ٣٣٦/٣.

7- التحرير والتنوير ٩٢/٢٣.

وجملة {ولهم عذاب واصب}: معترضة بين الجملة المشتملة على المستثنى منه وهي جملة {لا يسمعون إلى الملأ الأعلى}، وبين الاستثناء وقيل: وتعديه السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويله لما يمنعهم عنه، و"الخطف": هنا مستعار للإسراع بسمع ما يستطيعون سمعه من كلام غير تام كقوله تعالى: {يكاد البرق يخطف أبصارهم}[1].

وفي خصائص التعبير في قوله:{إلا من خطف الخطفة} المجاز ظاهر[2]، وعلى هذا يقول الدكتور عبدالعظيم المطعني:

أولاً: إن هذه المادة في القرآن الكريم يغلب عليا جانب المجاز إذ هو ظاهر في كل أمثلتها -ما عدا موضعاً واحداً- فإن الحمل على المعنى الحقيقي فيه أقرب إلى التصور.

ثانياً: إن هذه المادة لم تستعمل فيه إلا في مقام الامتنان وذلك في موضعين أحدهما: {تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ}[3].

وثانيهما: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ }[4].

أو مقام الخوف والهلاك وذلك في بقية المواضع منها:

1- البقرة، آية ٢٠، وينظر: حاشية الشهاب، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عزالدين عبدالسلام، ص ٧٥، دار الفكر، دمشق..
2- مفردات القرآن، الراغب، ص ١٠٥ (ب.ت).
3- الأنفال، آية ٢٦.
4- العنكبوت ٦٧.

{إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب}: وعلى هذا نجد أن هذه المادة في القرآن مادة مجاز[١].

قال تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ *بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ *وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ *أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ *أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ *قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ }[٢].

أراد الله جل وعلا أن يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: استفت يا محمد هؤلاء المنكرين واستخبرهم أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب، وخلق الشياطين الذي يصعدون إلى الأفلاك فنحن نعلم جوابهم بأن خلق ما سبق أشد وأصعب فيكون استنتاجهم بأن إعادة الحياة بعد الموت أهون وأيسر ونظير هذا قوله سبحانه في سورة يس: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم }[٣].

ومعنى قوله تعالى:{إنا خلقناهم من طين لازب} واللازب في لسان العرب هو: اللازم أي يلزم ما جاوره ويلصق به وهو الصلصال كالفخار وقيل: اللزج وأكثر أهل اللغة على أن الباء في لازب بدل الميم يقال: لازب ولازم[٤].

1- ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٣٤٢/٢، ٣٤٣، ط أولى، ١٩٩٢، مكتبة وهبة.
2- الصافات، الآيات من ١١ : ١٨.
3- سورة يس ٨١.
4- لسان العرب

وأيضاً لاتب وهو توبيخ لهم على التكبر والعناد والملتزق به قال ابن الأزرق وأنشد له النابغة:

فلا تحسبون الخير لا شر بعده
ولا تحسبون الشر ضربة لازب[1]

{بل عجبت}: خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وجوّز أن يكون لكل ما يقبله و{بل} للإضراب إما عن مقدر يشعر به {فاستفتهم} وإما عن الأمر بالاستفتاء أي لا تستفتهم فإنهم لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون[2].

{ويسخرون}: وضح الرازي في {بل عجبت ويسخرون} مسائل:

المسألة الأولى: تقرير الكلام على أن يقال: إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد، وقد تقرر أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر، ويخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ليقول: يا محمد أتتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم في طرف الإنكار وصلوا إلى حد السخرية منك.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي {عجبت} بالضم والباقون بفتحها، ومن قرأ بالفتح احتج بوجوه:

1- روح المعاني ٧٥/٢٣، حاشية الشهاب على البيضاوي، ٢٦٣/٧.
2- روح المعاني ٧٦/٢٣، حاشية الشهاب ٢٦٤/٧، والكشاف ٣٣٧/٣.

أولاها: أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك مُحال؛ لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله مُحال.

وثانيها: أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسل في آية أخرى في هذه المسألة، فقال: { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا } [1].

وثالثها: أنه تعالى قال: {بل عجب ويسخرون} والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذل التعجب صادراً منه، وأمَّا الذين قرأوا بضم التاء أجابوا بقولهم:

أولاً: أن القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى وبيانه أن يكون التقدير قل يا محمد {بل عجبت ويسخرون} ونظيره قوله تعالى: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [2]، وكذا قولهم: {فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [3].

ثايناً: سلمنا أن ذلك يقتضي إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم: إن ذلك محال؟، ويروى أن شُريحاً كان يختار القراءة بالنصب، ويقول: إن العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم[4].

1- الرعد، آية ٥.
2- الكهف آية ٢٦.
3- البقرة، آية ١٧٥.
4- ينظر: الفخر الرازي، المجلد الثالث عشر ص ١٢٦ بتصرف.

{وإذا ذكروا لا يذكرون}: أي هذا دأبهم أنهم إذا وُعظوا لا يتعظون أو أنهم إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم.

{وإذا رأوا آية يستسخرون}: أي معجزة تدل على صدق من يعظهم وأن يتركوا ما هم فيه {يستسخرون} أي يبالغون في السخرية ويقولون إنه لسحر ظاهر. {وقالوا إن هذا إلا سحر مبين}.

{أ إذا متنا وكنا تراباً وعظماً}: أي كان بعض أجزائنا تراباً وبعضها الآخر عظاماً {إنَّا لمبعوثون} أي نبعث {أو آباؤنا الأولون} مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر إن عليه أي وآباؤنا الأولون مبعوثون أيضاً والجملة معطوفة على ما قبلها، {قل نعم} أي تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون.

والخطاب في قوله {وأنتم داخرون} لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة في موضع الحال من فاعل ما دل عليه {نعم} أي تبعثون كلكم والحال إنكم صاغرون أذلاء[1].

البيان في النص:

{فاستفتهم}: الفاء تفريع على قوله: {إنا زيَّنا السمآء الدنيا بزينةٍ الكواكب} باعتبار ما يقتضيه من عظيم القدرة على الإنشاء، وضمير الغيبة في {فاستفتهم} عائد على محذوف للعلم به من دلالة

1- روح المعاني ٢٣/٧٦ : ٧٨.

المقام، وضمير الخطاب منه موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي فسلهم وهو سؤال محاجّة وتغليظ[١].

وقيل: {فاستفتهم} استخبر كفار مكة، توبيخاً أو تقريراً[٢].

{أهم أشد خلقاً}: الهمزة هنا للاستفهام التقريري، فالاستفتاء في معنى الاستفهام فهو يستعمل في كل ما يستعمل فيه الاستفهام[٣].

أي وهم أضعف خلقاً من خلق السموات وعوالمها، و{من} مبتدأ خبره محذوف[٤]. وجيء باسم العاقل {من} الموصولة تغليباً للعاقلين على بقية المخلوقات[٥].

و{خلقنا}: تمييز[٦].

{إنَّا خلقناهم من طين لازب} في موضع العلة لما يتولد من معنى الاستفهام من الإقرار بأنهم أضعف خلقاً من خلق السموات والأرض والضمير في {إنا خلقناهم} يعود على المشركين، وهو على حذف المضاف[٧]، وهذا الحذف كثير في الكلام، وهو من حذق كلمة.

{بل عجبت ويسخرون}: بل للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم عجب والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم،

1- التحرير والتنوير ٢٣/٩٤، وروح المعاني ٢٣/٧٥.
2- الصاوي على الجلالين ٣/٢٧٨، روح المعاني ٢٣/٧٥.
3- التحرير والتنوير ٢٣/٩٤.
4- روح المعاني ٢٣/٧٥.
5- التحرير والتنوير ٢٣/٩٥.
6- التحرير والتنوير ٢٣/٩٥، حاشية البيضاوي ٢٦٣.
7- التحرير والتنوير ٢٣/٩٥.

والماضي مستعمل في معنى الأمر وهو استعمال الخبر في معنى الطلب مبالغة[١] في السخرية فالسين والتاء للمبالغة[٢].

ومن الكلام السابق إذا كان اللفظ على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بعد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً، لأن الألفاظ أدل على المعاني وهذا لا يستعمل إلا في مقام المبالغة[٣].

ومثل الواو في {يسخرون} واو الحال والجملة في موضع الحال من ضمير {عجبت} أي كان أمرهم عجباً في حال استسخارهم بك[٤].

وفي حاشية الشهاب أن العجب من الله تعالى إمَّا على سبيل الغرض، أو التخييل أو على معنى الاستفهام[٥].

وقد ذكر الرازي أن ذلك في موضع التعجب الشديد[٦].

وفي قوله: {إنا لمبعوثون} بهمزة واحدة هي همزة (إن) باعتبار أنه جواب (إذا) الواقعة في حيز الاستفهام وقرأ غير نافع {أ أنا} بهمزتين إحداهما للاستفهام مؤكدة الداخلة على {إذا}[٧].

1- الصاوي على الجلالين ٢٧٨/٣.
2- التحرير والتنوير ٩٨/٢٣، والطراز العلوي ١٦٣/٢، دار الكتب العلمية، بيروت.
3- البرهان للزركشي، ٣٤/٣، المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر ابن الأثير، بتحقيق د. الحوفي، د. بدوي طبانة ٢٤١/٢.
4- التحرير والتنوير ٢٣/ ٩٥.
5- حاشية الشهاب ٢٦٤/٧.
6- الفخر الرازي المجلد ١٢٦/١٣.
7- التحرير والتنوير ٩٨/٢٣.

وقوله:{أو آباؤنا} حسناً أو عاطفة مفيدة للتقسيم.

وفي قوله: {إذا متنا} استفهام إنكاري وهذا على طريقة الأسلوب الحكيم وذلك بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهره فجعلوا كالسائمين أيبعثون؟ فيقل لهم: نعم تقريراً للبعث المستفهم عنه[1]. قيل وعدل إلى الجملة الاسمية لقصد الاستمرار إشعاراً بأنهم مبالغون في الإنكار[2].

وفي قوله: {أئذا متنا وكنا تراباً .. الخ} وهذه الآيات من إيراد شبههم بأساليب الاستفهام بالهمزة وأيان ومتى جاءت الآيات القرآنية[3].

وجيء بـ {قل}: غير معطوف؛ لأنه جار على طريقة الاستعمال في حكاية المحاورات[4].

{وأنتم داخرون} الجملة حالية والعامل فيها معنى لهم كأنه قيل تبعثون والحال كونكم صاغرون[5].

وقيل: {وأنتم داخرون}: لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة في موضع الحال، وقيل: أن المختار لا يوقف عليها لتعلق ما بعدها بما قبلها لاتصاله بالقول[6].. قال تعالى: { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ

1- التحرير والتنوير ٢٣/٩٩.
2- الصاوي على الجلالين، ٣/٢٧٨.
3- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ص ١٦٤.
4- التحرير والتنوير ٢٣/٩٩.
5- التحرير والتنوير ٢٣/٩٩، وينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي ٧/٢٦٥.
6- الاتقان ١/٢٤٨.

فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ *وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ *احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ *وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ *بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ }[1].

لما بين سبحانه في الآية المتقدمة ما يدل على إمكان البعث والقيامة ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة فذكر في هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال:

أولاً: {فإنما} جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة.

ثانياً: الضمير في قوله {فإنما هي} ضمير على شريطة التفسير والتقدير: فإنما البعث زجرة واحدة.

ثالثاً: الزجرة في اللغة الفصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم ولا بل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيغة وإن لم يكن فيها معنى الزجر[2].

{فإذا هم ينظرون} أي فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون كما كانوا في الدنيا أو ينتظرون ما يُفعل بهم وما يُؤمرون به[3].

{وقالوا}: أي المبعوثون، {يا ويلنا}: أي هلاكنا. {هذا يوم الدين}: استئناف منهم لتعليل دعائهم الويل و{الدين} بمعنى الجزاء

1- الصافات، الآيات ١٩ : ٢٦.
2- الفخر الرازي المجلد ١٢٩/١٣، ١٣٠.
3- روح المعاني ٧٩/٢٣.

كما في: " كما تدين تدان" أي في هذا اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا[١].

{هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون} كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل: هو كلام بعضهم لبعض أيضاً.

{احشروا الذين ظلموا}: خطاب من الله تعالى للملائكة أو من الملائكة بعضهم لبعض[٢].

{وأزواجهم}: وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكواكب مع عبدته.

{وما كانوا يعبدون من دون الله}: من الأصنام وغيرها وهو عام مخصوص بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ }[٣]. وفيه دليل على أن الذين ظلموا هم المشركون[٤].

{فاهدوهم إلى صراط الجحيم}: فعرِّفوهم طريقها ليسلكوها.

{وقفوهم}: احبسوهم في الموقف.

{إنهم مسئولون}: عن عقائدهم وأعمالهم[٥].

1- روح المعاني ٢٣/٧٩.
2- روح المعاني ٢٣/٧٩.
3- الأنبياء ١٠١.
4- حاشية الشهاب على البيضاوي ٧/٢٦٦.
5- حاشية الشهاب على البيضاوي ٧/٢٦٦.

وفي الحديث: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن شبابه فيما أبلاه وعن عُمُره فيما أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به}[1].

{ما لكم لا تناصرون}: قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا".

{بل همُ اليومَ مستسلمون}: يقال: استسلم للشيء إذا انقاد إليه وخضع، ومعناه في الأصل طلب السلامة بترك المنازعة[2].

البيان في النص:

{فإنما هي زجرة واحدة}: قيل لما جعلت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت مجازاً، والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أو تعليلية لنهي مقدر أي إذا كان كذلك فإنما البعثة زجرة واحدة، وقيل: زَوَجَ الزجاج أن تكون للتفسير والتفصيل وما بعدها مفسر للبعض وتعقب بأن تفسير البعث الذي في كلامهم لا وجه له والذي في الجواب غير مصرح به.

{واحدة}: تأكيد لما تفيده صيغة الفعلة من معنى المرة لدفع توهم أن يكون المراد من الصيحة الجنس دون الوجود؛ لأن وزن الفعلة يجيء لمعنى المصدر دون المرة، وضمير {هي} ضمير

1- ينظر: الصاوي على الجلالين ٢٧٩/٣.وفي الحديث " لاتزول قدم أبن آدم من بين يدى ربه حتى يسأل عن خمس خصال عن شبابه فيما أبلاه وعمره فيما أفناه وعن ماله ومن أين أكتسبه وفيما أنفقة وماذا عمل فيما علم " شعبة الإيمان حديث رقم ١٧٨٤ جـ٢ صـ٣٨٦ دار الكتب العلمية

2- الفخر الرازي، المجلد ١٣٢٢/١٣، ١٣٣.

القصة والشأن، وفرع عليه {فإذا هم ينظرون} وفاء التفريع دلّت على المفاجأة وحرف المفاجأة دلّ على سرعة حصول ذلك[١]. وكنى عن الحياة الكاملة في قوله: {ينظرون}؛ لأن النظر لا يكون إلا مع تمام الحياة، وذكر "النظر" دون البصر لمزيد اختصاصه بالمقام وهو التعريض والجملة {فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون} جواب شرط مقدر أو تعليل للنهي مقدر تقديره إذا كان الأمر كذلك فإنما هي .. الخ[٢].

{وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين} قيل: يجوز أن تكون الواو للحال، أي قائلين: يا ويلنا، ويجوز أن يكون عطفاً على جملة {ينظرون} وحرف النداء للاهتمام[٣].

{هذا يومُ الفصلِ الذي كنتم به تكذبون}: يجوز أن يكون هذا كلاماً لهم من الله تعالى جواباً عن قولهم {يا ويلنا هذا يومُ الدين} والخبر مستعمل في التعريض بالوعيد، ويجوز أن يكون من تمام قولهم أي يقول بعضهم لبعض، والفصل تمييز الحق من الباطل ويجوز أن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون {يا ويلنا هذا يومُ الدين} كلام الكفرين[٤].

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٠٠.
2- الصاوي على الجلالين ٣/٢٧٩.
3- التحرير والتنوير ٢٣/١٠٠.
4- الكشاف ٣/٣٣٨، وينظر: حاشية الشهاب ٧/٢٦٦.

{احشروا الذين ظلموا}: خطاب الله للملائكة أو خطاب بعضهم مع بعض[١].

وقيل: إنه أمر وهو مقولٌ لقولٍ محذوفٍ لظهور عدم صلاحيته لشيء مما سبقه وحذف القول من حديث البحر[٢]. وظاهر أنه أمر من قبل الله تعالى للملائكة الموكلين بالناس يوم الحساب.

{وأزواجهم}: ذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإنذار وذلك مثل تخصيصهن بالذكر في قوله تعالى: {

الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى }[٣]. والواو للعطف، وقيل: للمعية وقرأ بالرفع عطفاً على ضمير {ظلموا}[٤].

{وما كانوا يعبدون من دون الله}: وحشرهم معهم لزيادة التحسير والتخجيل[٥]. وفيه مبالغة في توبيخ الكفار لكثرة ما جاءهم من المنذرين ولدلائل قدرته سبحانه وتعالى في أنفسهم وفيمن حولهم وبالرغم من ذلك لا يؤمنون.

{فاهدوهم إلى صراط الجحيم}: هو ضمير منصوب في {فاهدوهم} عائداً إلى الذين {ظلموا} وعطف {فاهدوهم} بفاء تعقيب ذلك إشارة إلى سرعة الأمر لهم إلى النار عقب الحشر مباشرة.

1- الكشاف ٣/٣٣٨.
2- التحرير والتنوير ٢٣/١٠١.
3- البقرة آية ١٧٨.
4- روح المعاني ٢٣/٨٠.
5- روح المعاني ٢٣/٨٠.

وقولـه: {فـاهدوهم}: والهدايـة هنا بمعنى الطـريق أو معـرفة الطريق وقد تهكم بالكفار وكقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قراكـــم
قبيل الصبح مرادة طحونا[1]

وذكر الشـهاب {فـاهدوهم} أن التعبير بالصراط والهداية هنا من تشبيه الذم بما يشبه المدح[2].

{وقفوهـم}: قـيل فـي الآيـة قـولان: أحدهمـا: علـى الـتقديم والتأخير، والمعنى: قفوهم واهدوهم. وقيل: لا حاجة إليه بل كأنـه قيل: "فـاهدوهم إلـى صراط الجحيم" فـإذا انـتهوا إلـى الصراط قيل: وقفوهم فإن السؤال يقع هناك[3].

{مسئولون}: قيل هي بكسر الهمزة على الاستئناف وفيه معنى التعليل، وبفتحها على حذف لام العلة.

{مـا لكـم لا تناصـرون}: قـيل أن تأخـير هـذا السـؤال إلـى ذلـك الوقت؛ لأنـه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلـى النصرة وحالـة انقطاع الرجاء والتقريع والتوبيخ حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً.

وقـيل: السـؤال عـن هـذا فـي موقـف المحاسـبة بعـد اسـتيفاء حسابهم والأمر بهدايتهم إلى الجحيم.

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٠٢.
2- حاشية الشهاب ٧/٢٦٦.
3- الفخر الرازي المجلد ١٣/١٣٢.

وقيل: إن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم بعد إقامة الحجة عليهم وقطع أعذارهم وعطف {اهدوهم} على آخره إشارة إلى سرعة وقوع الحساب[1].

{ما لكم لا تناصرون}: هذا مستعمل في التعجيز مع تنبيههم على خطأهم الفادح الذي وقعوا فيه بمحض إرادتهم في الحياة الدنيا. وهذه الجملة مبينة لإبهام {مسئولون}، وهو استفهام مستعمل في التعجب للتذكير بما يسوءهم أي: أي شيء اختص بكم.

وفي قوله: {بل}: إضراب لإبطال إمكان التناصر بينهم تأكيداً لما دل عليه الاستفهام من التعجيز.

{مستسلمون}: مبالغة في أسلم وذكر {اليوم} لإظاهر النكاية بهم[2]. وله وقع بديع لإظهار أنهم يُغلبُون.

قال تعالى: { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ *فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ *فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ }[3].

والمعنى: {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون}: قيل هم والشياطين وقيل الرؤساء والأتباع.

1- روح المعاني ٨١/٢٣.
2- التحرير والتنوير ١٠٣/٢٣.
3- الصافات من الآية ٢٧ : ٣٢.

{يتساءلون}: أي يسأل بعضهم بعضاً، وهو عبارة عن التخاصم والإقبال المجيء من جهة قبل الشيء فلما حكى سبحانه عنهم إقبال . ضهم على بعض بتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل:

{قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين}: بمعنى أنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة للحق وتقوية للصدق أو يقال فلان يمين فلان إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم أننا عندكم بمنزلة اليمن أي بمنزلة حسنة..

أو المعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش وذلك حتى نحملونا على الضلال وتجبروننا عليه[1].

وقيل في معنى الآية: أنكم تأتوننا من الجهة التي يحسنها تمويهكم وإغواؤكم وتظهرون فيها أنها جهة الرِّشَد "وهو عن الزجاج والجبائي" أو أنكم كنتم تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمن فعبروا عنها باليمين، أو أنكم كنتم تجيئون من جهة الشهوات وعدم النظر لأن جهة اليمين فيها كبد الإنسان وجهة الشمال فيها قلب الإنسان، وقيل تحلفون لنا[2].

وقيل : تعدى إلى جهة اليمين بحرف "من" فلما عدى بـ "عَن" الذي هو للمجاوزة تعين تضمين "تأتوننا" معنى

1- الفخر الرازي ١٣٤/١٣.
2- ينظر: التحرير والتنوير ١٠٥/٢٣.

"تصدوننا"، ليلائم معنى المجاوزة، أي تأتوننا صادين عن اليمين أي عن الخير[1].

على معنى أن الاستعارة تصريحية تحقيقية في اليمين وحده على المعاني السابقة فجهة اليمين استعيرت للخير والنفع، وجاء منه مجاز أيضاً فيجوز فيه مجاز على المجاز كما قرر الكشاف في السابق، والظاهر أنها استعارة تمثيلية والتجوز في قوله: {تأتوننا عن اليمين}: تمنعوننا.

وجواب الزعماء: {بل لم تكونوا مؤمنين}: إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدوهم عن طريق الخير أي أنهم هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال: بل لم تؤمنوا، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم.

{وما كان لنا عليكم من سلطان}: أي من قصر وغلبة حتى نكرهكم على رفض الإيمان ولذلك أكدوا المعنى بقولهم: {بل كنتم قوماً طاغين} أي كان طبعكم وسجيتكم[2].

ونجدهم وقد فرعوا على كلامهم اعترافهم بأنهم جميعاً استحقوا العذاب بقولهم: {فحقّ علينا قولَ ربنا إنّا لذائقون} أي كان أمر ربنا بإذاقتنا العذاب و{حق} بمعنى ثبت.

<u>البيان في النص:</u>

1- الكشاف ٣٣٤/٣، وحاشية الشهاب ٢٦٧/٧، البحر المحيط ٣٥٧/٧، ط دار الفكر لبنان، طبعة ثانية.
2- التحرير والتنوير ١٠٥/٢٣.

{وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون}: عبّر عن إقبالهم بصيغة الماضي هو مما سيقع إن شاء الله يوم القيامة، وذلك لتحقق وقوعه لما له في التأثير في زعمائهم.

{يتساءلون}: للتوبيخ لا للاستعلام[1].

{قالوا ...}: استئناف بياني[2].

{قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين}: قيل أن لفظ اليمين هنا استعارة عن الخيرات والسعادات وذلك أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر، ووضح ذلك الرازي على أن الجميع انعقد على شرف ذلك الجانب وأن الأعمال الشريفة تباشر باليمين، وأن الجميع يتيمن بالجانب الأيمن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن في كل شيء، والشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات، وأن الله تعالى وعد المحسن بأن يؤتى كتابه بيمينيه أو أن لفظ اليمين هنا مستعار من القوة والقهر؛ لأنها موصوفة بالقهر وبهذا يقع البطش[3]. وهذه من الاستعارات الجميلة التي تجسّد المعنى.

وقيل: اليمين هنا مجازاً مرسلاً عن القوة والقهر فهي موصوفة بالقوة وبها يقع البطش فكأنه أطلق المحال على الحال أو السبب على المسبب[4].

1- حاشية لاشهاب على البيضاوي ٢٦٧/٧.
2- روح المعاني ٨١/٢٣.
3- الفخر الرازي ١٣٤/١٣، وحاشية الشهاب ٢٦٧/٧، والكشاف ٣٣٩/٣.
4- روح المعاني ٨٢/٢٣.

{قالوا}: استئناف على طراز السابق.

{بل لم تكونوا مؤمنين}: وهو إنكار لإضلالهم إياهم أي أنتم أضللتم أنفسكم بالكفر.

{وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين}: هو جواب واحد محصله اتصافكم بالكفر[1].

{وما كان لنا عليكم من سلطان} .. الخ: أقحم لفظ {قوماً} بين {كان} وخبرها؛ لأن استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأن الطغيان من مقومات قوميتهم، وفرعوا على كلامهم اعترافهم بأنهم جميعاً استحقوا العذاب.

{فحق علينا قول ربنا إنّا لذائقون}: تفريع الاعتراض، وجملة {إنا لذائقون}: بيانية لـ {قول ربنا}، وقيل: حكى القول بالمعنى على طريقة الالتفات وأتى لنكتة زيادة التنصيص على المعنى بذوْق العذاب. وحذف مفعول {ذائقون} لدلالة المقام عليه وهو الأمر بقوله تعالى: {فاهدوهم إلى صراط الجحيم}، وزيادة قولهم {كنا} للدلالة على تمكين الغواية من نفوسهم[2].

قال تعالى: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ *إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ *إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

1- روح المعاني ٨٢/٢٣.
2- التحرير والتنوير ١٠٦/٢٣، وينظر حاشية الشهاب ٢٦٧/٧، ٢٦٨.

*وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ }[1].

والمعنى هنا أي الفريقين المتسائلين، والكلام تفريع على ما شرح من حالهم {يومئذ} أي اليوم الذي يتساءلون فيه وهو يوم القيامة {في العذاب مشتركون}: كما كانوا مشتركين في الغواية غير أن المغوين أشد عذاباً.

{إنا كذلك نفعلُ بالمجرمين}: أي الكفار بدليل قوله تعالى بعده: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون}: عائد على المذكور السابق وهو قوله: {بالمجرمين} وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكفار ووقع عليهم العذاب لأنهم كذبوا بالتوحيد والنبوة فبالتوحيد {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون}. أما التكذيب بالنبوة: {أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} وقد كذبهم بقوله تعالى: {بل جاء بالحق وصدق المرسلين}[2].

<u>البيان في النص:</u>

{فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون}: الفاء فصيحة لأنها وردت بعد تقرير أحوال وكان ما بعد الفاء تتجه لتلك الأحوال فكانت مفصحة عن شرط مقدر هذا الكلام موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ويشبه أن يكون اعتراضاً بين حكاية حوار الله

1- الصافات الآيات ٣٣ : ٣٧.

2- ينظر: حاشية الشهاب ٢٦٨/٧، الكشاف ٣٣٩/٣، ٣٤٠، الرازي ٨٣/٣.

سبحانه أهل الشرك في القيامة وبين توبيخ الله إياهم: {إنكم لذائقوا العذاب الأليم} وهذه الجملة {فإنهم} .. الخ معترضة بين جمل حكاية موقفهم في الحساب، وجملة {إنَّا كذلك نفعل بالمجرمين} تعليل لما اقتضته جملة: {فإنهم في العذاب مشتركون}[1].

{إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون}: استئناف بياني أفاد تعليل جزائهم وبيان مدى إجرامهم بذكر ما كانوا عليه من التكبر عن الاعتراف بالوحدانية، وقيل: حرف {إن} هنا ليس للتأكيد وإنما هو للاهتمام بالخبر فلذلك تفيد التعليل والربط وتغني غناء فاء التفريع وذكر فعل الكون ليدل على أن ما تضمنه الخبر وصف متمكن منهم فهو غير منقطع ولأنهم حائدون عنه[2].

وقيل في {لا إله إلا الله} .. الخ: الخبر مؤخر عن إلا الله بناء على أن تقديره مقدماً يوهم كون الاسم مستثنى مفرغاً من ضمير الخبر. وقيل: لا يجوز عند جمهور المحققين وأجيز عند البعض.

وقيل: إن إلا عاطفة والاسم الجليل معطوف على الإله باعتبار المحل وهي عندهم بمنزلة لا العاطفة في أن ما بعدها يخالف ما قبلها إلا أن {لا} لنفي الإيجاب، و{إلا} لإيجاب النفي، وقيل: أن الاسم الكريم هو الخبر وضعف هذا الرأي بلزوم كون الخاص خبراً عن العام وكون الكلام مسوقاً لنفي العموم والتخصيص بواحد من أفراد ما دل عليه العام لا يُجدي نفعاً ضرورة أن {لا} عند الجمهور من نواسخ المبتدأ والخبر.

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٠٦، ١٠٧.
2- التحرير والتنوير ٢٣/١٠٧.

جاء به ومثبتاً لكون النبي صلى الله عليه وسلم على غير ما وصفوه إثباتاً بالبيعة.

{وصدق المرسلين}: وتصديق المرسلين بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً وتفصيلاً فما جاء به تقريراً لما جاءت به الشرائع قبله[1].

قال تعالى: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ *إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ *فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ }[2].

والمعنى: أن هذا من كلام الله تعالى يوم القيامة الموجه للمشركين عقب تساؤلهم وتحاورهم.

{وما تجزون إلا ما كنتم تعملون}: إلا مثل ما عملتم.

{إلا عباد الله المخلصين}: استثناء منقطع، هنا ترغيب في الثواب وترهيب بالعقاب وقد وقع الإخبار عنه لذا وجب تحققه بأن عباد الله المخلصين مستثنون من ذلك[3].

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٠٨.
2- الصافات من الآية ٣٨ : ٤٩.
3- الرازي ١٣/١٣٦.

{أولئك لهم رزق معلوم} .. الخ، لما وصف سبحانه أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد بإصرارهم على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين:

{أولئك}: العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغاً، وما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى: {لهم}: خبر له وقوله: {رزق}: مرتفع على الفاعلية للظرف..

وإمَّا خبر مقدم {رزق} مبتدأ مؤخر والجملة خبر المبتدأ والمجموع كالخبر للمستثنى المنقطع أو استئناف لما أفاده الاستثناء إجمالاً بياناً تفصيلياً.

وقوله تعالى: {معلوم}:أي معلوم الخصائص حسن المنظر لذيذ الطعم، طيب الرائحة، وقد جاء في آية أخرى: { يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}[1]. وما لا يدخل تحت الحساب لا يكون معلوماً.

وقيل: المراد معلوم الوقت لقوله تعالى: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا }[2].

وعن قتادة الرزق المعلوم الجنة، ونعقب بأن {في جنات} بعد يأباه واعترض بأنه إذا كان المعنى وهم مكرمون فيها لم يكن به

1- سورة غافر آية ٤٠، وينظر: روح المعاني ٨٥/٢٣.
2- سورة مريم آية ٦٢.

بأس وأجيب بأن جعلها مقر المرزوقين لا يلائم جعلها رزقاً وأمّا إذا كان قيداً للرزق فهو ظاهر كالباء[١].

{فواكه}: الفاكهة ما يُقصد للتلذذ.

{وهم مكرمون}: في نيله يصل إليهم من غير تعب[٢]. وقيل: لا يلحقهم هوان وهو إشارة إلى النعيم الروحانى بعد النعيم الجسماني، وقيل: {مكرمون}: في نيل الرزق من غير كسب وكد وسؤال[٣].

{في جنات النعيم * على سُرُرٍ متقابلين}: أي لا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب. وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم.

{يطاف عليهم بكأس من معين}: يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس، ويسمّى الخمرة نفسها كأساً قال:

وكأس شربت على لـذة

وأخرى تداويني منها بها[٤]

وعن الأخفش: "كل كأس في القرآن فهي الخمر.

{من معين}: شراب معين أو نهر معين، وهو مأخوذ من عين الماء وسمي معيناً لظهوره ويجوز أن يكون فعيلاً من المعين، وهو الماء الشديد الجري.

1- روح المعاني ٨٦/٢٣.
2- حاشية الشهاب ٢٦٩/٧.
3- روح المعاني ٨٦/٢٣، وينظر: الرازي ١٣٥/١٣، ١٣٦.
4- روح المعاني ٨٦/٢٣.

{بيضاء}: صفة الخمر قال الأخفش: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن.

{لذة}: فيه وجوه كما ذكر الفخر الرازي وهي:

١- أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة إذا أرادوا المبالغة.

٢. أي ذات لذة بحذف المضاف.

٣- الليث واللذ واللذيذ يجريان مجرى واحداً في النعت، ويقال شراب لذ ولذيذ[1].

{لا فيها غول}: الغول من غالة يغوله غولاً إذا أهلكه وأفسده ومنه الغول الذي في تكاذيب العرب، وفي أمثال العرب الغضب غول الحلم.

{ينزفون}: على البناء للمفعول من نزفالشارب إذا ذهب عقله أو شرابه. والمعنى: لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم، ولا هم يسكرون فأفرده بالذكر[2].

البيان في النص:

{إنكم لذائقوا العذاب الأليم}: فيه التفات، وذلك لإظهار كمال الغضب عليهم.

1- الرازي المجلد ١٣٧/١٣

2- الكشاف ٣٤٠/٣.

{إلا عباد الله المخلصين}: استثناء منقطع من ضمير {ذائقوا} وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى تحقيق الحق، وقيل: هو استثناء منقطع من ضمير {تجزون}.

{المخلصين} صفة مدح والإضافة للتشريف.

{أولئك}: فيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغاً، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلوّ طبقتهم وبُعد منزلتهم في الفضل.

{فواكه}: بدل من {رزق} بدل كل من كل وقيل: هو بدل بعض من كل وخُصصت بالذكر لأنها من أتباع سائر الأطعمة فتدل على تحقيق غيرها[1].

وقيل: هو عطف بيان من {رزق} بمعنى أن طعامهم كله من الأطعمة التي يتفكه بها لا مما يؤكل لأجل الشبع[2].

{مكرمون}" يفيد التعظيم لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم[3].

وأيضاً لأن الإحسان قد يكون غير مقترن بمدح وتعظيم ولا بأذى وهو الغالب، وقد يكون مقترناً بأذى وذلك يكدر من صفوه، قال

1- روح المعاني ٨٦/٢٣، الصاوي على الجلالين ٢٨٠/٣.
2- التحرير والتنوير ١١١/٢٣.
3- الرازي ١٣٧/١٣.

تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ }[١].
فإن كان الإحسان مع عبارات الكراهة وحسن التلقي فذلك الثواب[٢].

{يطاف عليهم بكأس}: أفرد الكأس مع أن المعطوف عليهم كثيرون؛ لأنها وصفت بأنها من معين وهو مبالغة في المعين.

وفي كلام الشهاب أن الإناء الذي به خمر فإنها لا تسمى كأساً حقيقية إلا وفيها شراب فإن خلت منه فهو القدح وهو مجاز من إطلاق المحل على الحال فيه وهو مجاز مشهور بمنزلته الحقيقية[٣].

وجعل أبو حيان العلاقة في هذه الآية المحلية أيضاً[٤].

وقد جعل الشريف المرتضى العلاقة المجاورة لقوله: "ومن شأن العرب أن تسمي الشيء باسم ما يقاربه ويصاحبه إذا انكشف المعنى وأمن الإيهام، ومن ذلك قولهم: صرعته الكأس واستلبت عقله والكأس هي ظرف الشراب، والفعل الذي أضافوه إليها مضاف إلى الشراب الذي يملأ الكأس إلا أن الفراء لا يقول كأس إلا وفيه شراب، وعلى هذا يكون إضافة اختلاس العقل إلى الكأس على وجه الحقيقة لأنها اسم للإناء[٥].

1- البقرة، ٢٦٤.
2- التحرير والتنوير ١١٢/٢٣.
3- حاشية الشهاب ٢٦٩/٧.
4- ينظر: البحر المحيط
5- أمالي المرتضى، بتحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي: ١٤٧/٢، ١٤٨، وينظر: البيان عند الشهاب الخفاجي [illegible] ١٩٩٥م

{بيضاء}: صفة لكأس وجرى تأنيث الوصف تبعاً للتعبير عن الخمر بكلمة كأس على أن اسم الخمر يذكر ويؤنث وتأنيثها أكثر ومثل للمبالغة في وصف الخمر قيل لذة كأنها نفس اللذة، قيل ذات لذة، وقيل اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحد في النعت يقال شارب لذ ولذيذ[١].

{لا فيها غول}: صفة رابعة لكأس باعتبار إطلاقه على الخمر، وقيل ليس بها كراهة أو نتن كخمر الدنيا لقول امرئ القيس:

رب كأس شربت لا غول فيها

وسقيت النديم منها مزاجـــاً[٢]

وفيه تعميم وإن التنصيص على مخصوص من باب التمثيل وتقديم الطرف على ما قيل للتخصيص والمعنى ليس فيها ما في خمور الدنيا من الغول[٣].

{لا فيها غول ولا هم عنها يُنزفون}: يقولن قدم الظرف تعريضاً بخمُور الدنيا وأن المعنى هي على الخصوص لا تغتال العقول اعتيال خمور الدنيا[٤]. هنا تقديم يفيد التخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي.

1- الفخر الرازي ١٣٧/١٣.
2- ديوان امرؤ القيس
3- روح المعاني ٨٨/٢٣.
4- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبوموسى، ص ٦٠٦، دار التضامن، ١٩٨٨م، وينظر: التحرير والتنوير ١١٤/٢٣.

يقول الشيخ الدسوقي: ذكر الإنصاف إشارة إلى أنه من قصر الموصوف على الصفة فعدم الغول موصوف، والصفة التي قصر عليها هي الكون في خمور الجنة[١].

{وعندهم قاصرات الطرف}: في الآية حذف موصوف أي حور قاصرات[٢].

{عِين كأنهن بيض مكنون}: فيه تشبيه مرسل وهو ما ذكرت فيه الأداة، نلمح في هذا التشبيه معنيين هما: الرقة والبياض، وهذان وصفان راجعان إلى جمال الأنثى الحسّي، وإن كانت الرقة أقرب إلى الجمال النفسي منها إلى الحسني[٣].

وفي كلمة {مكنون}: ما يوحي بالمعنى السابق ويؤكده فهنّ في ستر وكن عن التبرج وهذا غاية في مناسبة الوصف ومطابقته وبلاغة معنى التشبيه وموافقته[٤]. واستشكل التشبيه السابق على ما تقدم بآية عروس القرآن: {كأنهن الياقوت والمرجان} فإنها ظاهرة في أن من ألوانهن حُمرة، وأين هذا من التشبيه بالبيض المكنون فيتعين أن يكون التشبيه من حيث النعومة والطراوة، أو

1- حاشية الدسوقي، ضمن شروح التلخيص ١١١/٢.

2- المعجم المفصل في علوم البلاغة، البديع، والبيان، والمعاني، د. أنعام فوال، ص ٤١، ط. دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

3- ينظر: خصائص التعبير القرآني ٢٤٣/٢، دكتور. عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة، ١٩٩٢م، وينظر: نظرات في البيان، محمد عبدالرحمن الكردي، ص ٧٠، ٧١، ط. ثانية ١٩٨٣م.

4- ينظر: من أسرار التعبير في القرآن الكريم، د.هاشم محمد هاشم، ص ١٠٣، ط. أولى ١٩٩٤م، وينظر: الجمان في تشبيهات القرآن، ص ٢٤٣، لابن ناقيا البغدادي، تحقيق: مصطفى الجويني، دار المعارف بالإسكندرية.

تناسق الأجزاء، أو أن يكون المشبهات بالبيض المكنون غير المشبهات بالياقوت والمرجان وكون البياض المشوب بالصفرة أحسن الألوان في النساء غير مسلم، بل هو حسن، وكذا مثله في الحُسن البياض المشوب بحُمرة على أن الأحسنية تختلف باختلاف طباع الرائين، وللناس فيما يعشقون مذاهب[1].. ومما سبق لا إشكال أصلاً في الكلام السابق.وقيل: إن الإفراط في التشبيه ليس كذباً، وإنما هو قول صدق موشّى بزينة المبالغة[2].

وفي التشبيه السابق نجد تشبيه الشيء بالشيء لوناً وحسناً فانظروا معي إلى حُسن وجمال التشبيه هنا وهذه الآية من أبلغ التشبيه وأجوده.

قال تعالى: { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ *قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ *يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ *أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ *قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ *فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[3].

1- روح المعاني ٢٣/٩٠، وينظر: لباب البيان ص ١٢٥، ط. ثانية ١٩٨٧م، والكامل للمبرد ٢/٥٢.

2- منهاج البلغاء ص ٧٥، لحازم القرطاجي، وسراج الأدباء، تونس، ١٩٦٦م، وينظر: كتاب أرسطو في الشعر والبلاغة، ص ٨٨، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، وينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي، ص ١٤، د. عبدالقادر حسين.

3- الصافات الآيات ٥٠ : ٦٠.

والمعنى: {فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون}: معطوف على {يطاف عليهم}، أي يتحادثون ويتحادثون على الشراب، قال محمد بن فياض:

وما بقيت من اللـــــذات إلا
محادثة الكرام على الشراب
ولثمك وجنتي قمرٌ منـــيرٌ
يجولُ بوجههِ ماءَ الشبابِ[1]

{قال قائل منهم}: في تضاعيف محاورتهم.

{إني كان لي قرين}: في الدنيا مصاحب.

{يقول}: لي على طريق التوبيخ.

{إنك لمن المصدقين}: أي بالبعث.

{أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون}: أي لمبعوثون ومجازون من الدين بمعنى الجزاء، وقيل: لموسوسون مربوبون من دانهُ إذا ساسه ومنه الحديث: (العاقل من دان نفسه)[2].

{المصدقين}: بالبعث.

{أئذا متنا وكنا تراباً وعظماً أئنا لمدينون}: مجزيون محاسبون.

{قال هل أنتم مطلعون}: أي ذلك القائل لإخوانه، أي مطلعون إلى النار.

1- الفخر الرازي ١٣، ١٣٨، وروح المعاني ٩٠/٢٣.
2- روح المعاني ٩١/٢٣.

{فاطلع}: ذلك القائل من بعض كوَى الجنة. {فرآه}: أي قرينه. {في سواء الجحيم}: أي في وسط النار.

{قال}: تشميتاً.

{تا الله إن}: مخففة من الثقيلة.

{كدت لتُردين} أي قاربت أن تهلكني بإغوائك.

{ولولا نعمة ربي}: على بالإيمان.

{لكنت من المحضرين}: معك في النار.

ويقول أهل الجنة: {أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى}: أي التي في الدنيا.

{وما نحن بمعذبين}: استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله.

{إن هذا لهو الفوز العظيم}: حكاية لنصبه كلام القائل لرفاقه.

وقيل: نزلت في أخوين مؤمن وكافر كانا غنيين، وكان المؤمن ينفق في الصدقات والكافر ينفق في الملذات[1].

البيان في النص:

{فأقبل بعضهم}... الخ: الفاء للتفريع؛ لأن شأن المتجالسين في مسرة أن يتحدثوا فلذلك حكى إقبال بعضهم على بعض بالمساءلة بفاء التعقيب، وجيء في هذا الحالة بصيغ الفعل الماضي مع أنها مستقبلة لإفادة تحقيق وقوع ذلك، حتى كأنه قد وقع مثل قوله تعالى:

1- حاشية الشهاب على البيضاوي ٢٧٢/٧، التحرير والتنوير ١١٩/٢٣.

{أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ }[1]. وقيل: عبر بالماضي للاعتناء بهذا المعطوف بالنسبة إلى المعطوف عليه[2].

والقرينة هي التفريع، حذف هنا المتساءل عنه لدلالة ما بعده عليه.

{قال قائل منهم}: بدل اشتمال من جملة {يتساءلون} أي قال أحدهم في جواب سؤال بعضهم، فمعنى التساؤل يشتمل على معنى الجواب فلذلك جعل بدل اشتمال لا بدل بعض ولا عطف بيان.

{القرين} مراد به الجنس، فقد شبهت الملازمة الغالبة بالقرن بين شيئين بحيث لا ينفصلان أي يقول له صاحبه لما أسلم وبقي صاحبه على الكفر يجادله في إسلام ويحاول تشكيكه في صحته رجاء رجوعه للكفر[3].

{أئنك لمن المصدقين}: الاستفهام مستعمل في الإنكار، وسلط الاستفهام على حرف التوكيد لإفادة أنه بلغة تأكد إسلام قرينة فجاء ينكر عليه ما تحقق عنده.

وقد ذكر في قوله تعالى: {أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً: أولاً: تقديم الظرف ليكون مدخول الهمزة وهو ظرف بإذا التي تفيد اليقين إنصباباً للإنكار على الحدث في هذا الوقت بهذه الحال إذ هو المثير أقصى العجب والاستبعاد والرفض والإحالة في تصورهم لأنهم

1- سورة النحل، آية ١.
2- روح المعاني ٢٣/٩٠.
3- التحرير والتنوير ٢٣/١١٥، ١١٦.

مُنكرون للبعث مطلقاً، ثم تحقيقاً للإحالة، وتصوير لغاية الاستبعاد يعطفون على الفعل.

{متنا} غالباً مرحلة من مراحل التحلل للجسد البشري. {وكنا تراباً وعظاماً}: ومن عجب أنهم حين يذكرون آباءهم معهم فى نسق متلاصق لا يذكرون العظام[١].

وجملة {إذا متنا}: بيان لجملة {أئنك لمن المصدقين} بين الإنكار المحمل بإنكار مفصل وهو إنكار بعث الناس بعد تفرق أجزائهم وتحولها تراباً بعد الموت. وجملة {إنا لمدينون}: جواب {إذا} وقربت بحرف التوكيد[٢]. لإفادة أنه بلغه.

وقيل هنا {أئنا لمدينون}: وفي أول السورة {إنا لمبعوثون} لاختلاف القائلين[٣].

{قال هل أنتم مطلعون}: قيل أن الاستفهام للعرض أو للأمر والغرض من ذلك إرائتهم سوء حال القرين ليؤنسهم نوع إيناس، وقيل المراد هو بيان صدقه فيما حكاه، وحذف متعلق {مطلعون} لدلالة آخر الكلام عليه بقوله: {في سواء الجحيم}، فالتقدير: هل أنتم مطلعون على أهل النار لننظره فيهم.

1- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. صالح عيد، ص ١٦٦، ط. ١٩٨٦م.
2- التحرير والتنوير ١١٦/٢٣.
3- التحرير والتنوير ١١٦/٢٣.

وفي قولـه: {فاطلع} اكتفاء أي فاطلع واطلعوا فرآه ورأوه في سواء الجحيم إذ هو إنما عرض عليهم بالاطلاع ليعلموا تحقق ما حدثهم عن قرينه، واقتصر على ذكر إطلاعه دون ذكر اطلاع رفقائه لأنه ابتدا بالاطلاع ليميز قرينه فيريه لرفقائه[١]. {قال تا الله إن كدت لتُردين}: مستأنفة استئنافاً بيانياً، وحدث حين رأى قرينه أخذ يوبخه على ما كان يحاوله معه حتى كاد أن يلقيه في النار مثله، وهذا التوبيخ يتضمن تنديمه على محاولة إرجاعه عن الإسلام[٢].

وقد أقسم في قوله: {تا الله} بالتاء في الشيء الذي فيه غرابة، ومحل الغرابة هو خلاصة من شبكة قرينه واختلاف حال عاقبتهما مع ما كانا عليه من شدة الملازمة وما حفه من نعمة الهداية، وما تورط قرينه في متاهات الغواية[٣].

و{إن}: مخففة من الثقيلة واتصل بها الفعل الناسخ، واللام الداخلة على خبر كاد هي الفارقة بين "إن" المخففة والنافية {تردين} الردى: الهلاك وأصله الموت، واستعير لسوء الحال تشبيهاً بالموت وقرأ {لتردين} بنون مكسورة في آخره دون ياء المتكلم على التخفيف وهو حذف شائع الاستعمال الفصيح وهو لغة أهل نجد، وكتب في المصاحف بدون ياء ولا ينافي ذلك رسم المصحف[٤].

1- ينظر: روح المعاني ٩٢/٣.التحرير والتنوير ١١٦/٢٣، ١١٧.
2- التحرير والتنوير ١١٧/٢٣.
3- التحرير والتنوير ١١٨/٢٣.
4- التحرير والتنوير ١١٨/٢٣.

{أفما نحن بميتين إلا موتتنا}: الاستفهام موجه من القائل إلى بعض المتسائلين وهو مستعمل في التقرير المراد به التذكير بنعمة الخلود[١].

وقيل: هو تعريضاً للقرين بالتوبيخ، وجوّز أن يكون من كلام المتسائلين جميعاً وهو من تتمة كلام القائل يُسمع قرينه على جهة التوبيخ له[٢].

وقيل: هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب[٣].

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام[٤].

{إلا موتتنا الأولى}: الاستثناء منقطع؛ لأن الموت المنفي هو الموت في الحال أو الاستقبال فتعين أن المستثنى غير داخل في المنفي فهو منقطع أي لكن الموتة الأولى والاستدراك هذا تأكيد للنفي ومنصوب للانقطاع لا للنفي[٥].

وقيل: يجوز أن يكون منقطعاً أي لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا وعلمهم بأنهم لا يموتون ناشئ من إخبار أنبيائهم لهم في

1- التحرير والتنوير ١١٩/٢٣.
2- روح المعاني ٩٣/٢٣، المحرر الوجيز ٢٣٧/٣.
3- الصاوي على الجلالين، ٣/ ٢٨١.
4- الكشاف ٣٤١/٣.
5- التحرير والتنوير ١١٩/٢٣.

الدنيا وإعلامهم إياهم بأن أهل الجنة لا يموتون أو من قول الملائكة عليهم السلام لهم حين دخول الجنة {طبتم فادخلوها خالدين}[١].

والنفي والاستثناء يستخدم في مجال الشك والإنكار .

{وما نحن بمعذبين}:عطف ليتمخض الاستفهام للتحدث بالنعمة؛ لأن المشركين وما هم بميتين ولكنهم معذبون فحالهم شر من الموت[٢].

{إن هذا لهو الفوز العظيم}: حكاية لبقية كلام القائل لرفاقه فهي بمنزلة التذييل، وقيل: هو متضمن إشارة ذلك القائل إلى ظهور النعيم وترك التعرض للتصريح به للاستغناء، وقيل: يجوز أن يكون هذا كلامه تعالى قاله سبحانه تقريراً لقول ذلك القائل وتصديقاً له مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام وكذا أمته والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر[٣].

قال تعالى: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ *أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ *إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ *إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ *فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ لمثل هذا فليعمل العاملون * }[٤].

1- روح المعاني ٩٤/٢٣، وحاشية الشهاب ٢٧٢/٧.
2- التحرير والتنوير ١١٩/٢٣.
3- حاشية الشهاب ٢٧٣/٧، والتحرير والتنوير ١١٩/٢٣.
4- الصافات، الآيات ٦١ : ٦٨.

والمعنى: هو كلام من جانب الله تعالى للتنويه بما فيه عباد الله المخلصين، وللتحريض على العمل بمثل ما عملوه مما أوجب لهم إخلاص الله إياهم لبيان مثل هذا فليعمل أي للإرشاد الصادق المخلصون.

{أذلك خير نزلاً} ... الخ: استئناف بعد تمام قصة المؤمن ورفاقه قصد منه التنبيه إلى بيان الفرق الشاسع بيان حال المؤمن وحال الكافر، وذلك على عادة القرآن الكريم في تعقيب القصص والأمثال بالتنبيه إلى مغازيها ومواعظها وفيه خطاب لكل سامع.

{أم شجرة الزقوم}: هو اسم شجرة لأهل النار وهي شجرة صغيرة الورق دقيقة مُرة تكون بتهامه[1].

{إنّا جعلناها فتنة للظالمين}: أي محنة للظالمين وعذاباً لهم في الآخرة وابتلاء في الدنيا[2]. وفيه أقوال أخرى منها: أنها لما صارت فتنة للظالمين وسمعوا ذلك الكفار تعجبوا من وجود شجرة في جهنم؛ لأن النار في جهنم تحرق الشجر، ويجاب عنه: بأن خالق النار قادر على منع النار من إحراق الشجر، وصارت الشبهة السابقة سبباً لتماديهم في الكفر.

ومنها: أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم في النار؛ لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم فحينئذ تصير فتنة لهم.

1- حاشية الشهاب ٢٧٣/٧.
2- حاشية الشهاب ٢٧٣/٧.

ومنه: أن المراد من الفتنة الإختبار والامتحان فإذا ورد إلى المؤمن فوض أمره إلى الله وإذا ورد إلى الكافر توسل به إلى الطعن في القرآن والنبوة[١].

ولما ذكر سبحانه هذه الشجرة وصفها بصفات عدة:

أولاً: أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

ثانياً: {طلعها كأنه رؤوس الشياطين}: الطلع للنخلة، واستعير لطلع الزقوم إما استعارة لفظية أو معنوية وسمي "طلعاً" لطلوعه كل سنة[٢].

والأوصاف التي ذكرت عليها شجرة الزقوم بالغة الحدّ في الزم وهو الذي عبّر عنه بالملعونة في قوله تعالى: { وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ }[٣]. وكذا: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ *طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * }[٤].

وقد أنذروا بأنهم آكلون منها إنذاراً مؤكداً، وضمير {منها} عائد على الشجرة أي: آكلون عذاباً وكرهاً.

{ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم}: ثم للتراخي الرتبي؛ لأنها عطفت جملة، وليس للتراخي في الإخبار معنى إلا إفادة أن ما بعد

1- الفخر الرازي ١٤١/١٣، ١٤٢.
2- الفخر الرازي ١٤٢/١٣.
3- الإسراء ٦٠.
4- الدخان ٤٣، ٤٤.

حرف التراخي أهم وأعجب مما قبله، بحيث لم يكن السامع يرقبه فهو أعلى رتبة باعتبار أنه زيادة في العذاب على الذي سبقه فوقعه أشد منه.

{شوباً}: والشوب أصله مصدر شاب الشيء بالشيء: إذا خلطه به، وهو من إطلاق المصدر على المفعول كالخلق على المخلوق. "على" بمعنى مع هنا،ويصح أن تكون للاستعلاء.

{الحميم}: القيح السائل من الدُمّل.

{مرجعهم}: مكان الرجوع أي المكان الذي يعود إليه الخارج منه بعد مفارقته[1].

البيان في النص:

{أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم}: الاستفهام مكني به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسارة الكافر، والإشارة في {أذلك} إلى ما تقدم من حال المؤمنين وجيء باسم الإشارة مفرداً لبُعد المُشار إليه لتعظيمه بالبُعد أي بُعد المرتبة وسموّها؛ لأن الشيء النفيس الشريف يُتخيّل عالياً، والعالي يلازمه البُعد عن المكان المعتاد وهو السفل وكما قيل: أين الثريا من الثرا[2].

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٢٥، ١٢٦.
2- التحرير والتنوير ٢٣/١٢١.

و{نزلاً} هو المكان الذي ينزل فيه النازل وأطلق على الطعام المهيأ للضيف؛ لأنه أعد له لنزوله تسمية باسم مكانه[1]. وبذلك يكون مجازاً مرسلاً مثل:

{واسألوا القرية} والمراد: أهلها، قيل:يراد به مكان النزول، وانتصاب نزلاً على الحال من اسم الإشارة ومقومه الإشارة بقوله {ذلك} إلى ما يناسب الوجهين[2].

{إنها شجرة} .. الخ: جيء بـ إنما للتهويل.

{طلعها كأنه رؤوس الشياطين}: قيل أنها من التشبيه الوهمي وهو ما لا وجود لهولا لأجزائه أو بعضها في الخارج ولو جد لكان مدركاً بإحدى الحواسّ الخمس الظاهرة، كقول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي

ومسنونة زرق كأنياب أغوال[3]

فقد شبه السهام المسنونة بأنياب أغوال، فالغول معدوم، وأنيابها صفته معدومة تبعاً لانعدام الغول في الخارج فهو غير محقق ذهناً، وفي الآية الكريمة أن العرب لم تر رأس الشيطان، فرأسه صورة وهمية لا وجود لها في الخارج فهي غير محققة ذهناً، وعلى هذا يكون وهمياً والأجود أنه تشبيه وهمي؛ لأن الله جعل

1- التحرير والتنوير ١٢١/٢٣.
2- التحرير والتنوير ١٢١/٢٣.
3- البيت من قصيدة مطلعها:
ألا عم صباحاً أيها الطلل الباكي
وهل يعمن من كان في العصر الخالي
ينظر: ديوان امرئ القيس، ص ١٤١.

صورة الجن والشياطين في نفوسنا مرعبة وإن لم نرها عياناً لبشاعتها وفظاعتها فخوفنا الله بما عنده من العقوبة وشبهه بما تخاف رؤيته[١].

وذكر الحلبي في كتابه "حسن التوسل" أنه يقرب من النوع المسمى "التشبيه الخيالي"[٢]. وقد أدرج صاحب "المطول" و"الأطول" و"الإيضاح" و"التلخيص" هذا النوع في تشبيه العقلي بالعقلي لأنه يدرك بشيء من الحواسّ الخمس الظاهرة.

وقد ذكر د. أبوموسى الطلع للنخلة واستعير لما طلع من شجر الزقوم من حملها إمَّا استعارة لفظية أو معنوية[٣].

وقد ذكر د. هاشم محمد هاشم: {طلعها كأنه رؤوس الشياطين} شبه القرآن الكريم طلع شجرة الزقوم وهذا مجهول لهم - برؤوس الشياطين- وهذا مجهول أيضاً، وإنما يكون التشبيه بالجلي ليكشف المشبه لا بالخفي؛ حتى لا يزداد خفاء، وهذا التشبيه مع خفائه يعطي التهويل والرعب والخوف والتنفير، وتنوع التصوير فكل سامع يتصور رؤوس الشياطين بتصور مخالف للآخر فتتعدد صور القبح ويزداد النفور والخوف والهول والفزع.

1- ينظر: نظرات في البيان، د. الكردي، ص ٤٢، ٤٣، ط. ثانية، ١٩٨٣م، وينظر: الكامل للمبرد، ١٤٤/٣، ط. نهضة مصر، والعمدة لابن رشيق ٢٨٨/١ بتحقيق:محمد محي الدين ط. الخامسة، دار الجيل، وينظر: البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. رابح دوب، ص ١٣٤٤، دار الفجر للنشر والتوزيع، وينظر: الرازي ١٤٢/١٣.

2- المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. أنعام فوال، ص ٣٥٥.

3- الكشاف ٣٤٢/٣، البلاغة القرآنية د. أبو موسى، ص ٥٠٨، ١٩٨٨م.

فالغرض من التشبيه يتعدى المعرفة بالمشبه به إلى ما هو أهم إلى إثارة ناحية نفسية من التهويل والفزع والرعب والخوف في صورة بشعة قبيحة ... الخ، واستعمال كأن يدل على قوة الشبه في إلحاق المشبه بالمشبه به الذي يوحي بقوة الرعب والفزع والخوف[1].

{آكلون منها}: إنذاراً مؤكداً أي آكلون من ثمرها وهو الطلع وضمير {منها}: للشجرة.

{فمالئون منها البطون}{: الملء كناية عن كثرة ما يأكلون منها على كراهتها، وكما نرى أن الكناية أبلغ من التصريح والتعريض أوقع من التصريح وذلك أبلغ في إثبات المعنى وأشد وقعاً والفاء {فمالئون} فاء تفريع ومنها معنى التعقيب، وذلك تصوير لكراهتها فإن الطعام الكريه كالدواء إذا تناوله آكله أسرع ببلعه وأعظم لقمه لئلا يستقر طعمه على اللسان[2].

{ثم}: للتراخي الرتبي؛ لأنها عطفت جملة وليس للتراخي في الإخبار.

والشوب: مصدر شاب الشيء إذا خلطه من إطلاق المصدر على مفعوله.

1- من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل "إن وأخواتها" في القرآن الكريم، هاشم محمد، ص ١٠١ : ١٠٣، وينظر: الجمان في تشبيهات القرآن ص ٢٣٨، ابن ناقيا البغدادي، بتحقيق مصطفى الجويني، دار المعارف، الإسكندرية.

2- التحرير والتنوير ١٢٥/٢٣.

{عليها}: ضميرها عائد إلى {شجرة الزقوم}: و{على} بمعنى مع ويصح أن تكون للاستعلاء.

{مرجعهم}: قد يستعار للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيهاً بمغادرة المكان ثم العود إليه مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم حين رجوعه من إحدى مغازيه: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) يريد مجاهدة النفس فإنه لم يعن أنهم حين اشتغالهم بالجهاد قد تركوا مجاهدة أنفسهم، وإنما عن أنهم كانوا في جهاد زائد فصاروا إلى الجهاد السابق[1].

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}[2].

والمعنى في قوله: {إنهم ألفوا آباءهم} .. الخ: تعليل لاستحقاقهم العذاب لوجود المناسبة بينه وبين جُرمهم ولتقليدهم الآباء في أصول الدين وذلك من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أو لا، مع ظهور كونهم على الباطل.

{يهرعون}: بفتح الراء مبنياً للمجهول مضارع أهرعه، إذا جعله هارعاً أي: حمله على الهرع وهو الإسراع المفرط في السير، عبر به عن المتابعة كأنهم يحثون عليه حثاً.

1- التحرير والتنوير ١٢٦/٢٣.
2- الصافات ٦٩ : ٧٤.

{ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ }: أي قبل هؤلاء الظالمين وهم قريش، وعقب وصف حال المشركين في الآخرة وما علّل به عن أنهم ألفوا أبائهم ضالين فاتبعوا آباءهم بتنظيرهم بمن سلفوا من الضالين وتذكير للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما يلاقيه من التكذيب واستقصاء لهم في العبرة والموعظة بما حل بالأمم قبلهم، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها إكمالاً للتعليل أي اتبعوا آبائهم واقتدوا بأشياعهم[1].

وذكر {أكثر الأولين} لئلا يغتر ضعفاء العقول بكثرة المشركين وليعلم أن الضلال والهدى حقيقتان ثابتتان فإذا عرضت لأحداهما كثرة أو قلة فلا تكونان فتنة، قال تعالى: {قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ }[2].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ }: وبذلك تكتمل التسلية والعبرة والعلّة أيضاً أي رسلاً ينذرونهم وضمير فيهم راجع إلى {الأولين}.

{ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ }: من الهول والفظاعة والخطاب إمَّا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يتأتى عنه مشاهدة آثارهم.

ولقد استثنى عنهم {إلا عباد الله المخلصين}: الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله أو أخلصهم الله لدينه[3].

1- التحرير والتنوير ٢٣/ ١٢٨، روح المعاني ٩٧/٢٣.
2- سورة المائدة آية ١٠٠.
3- الكشاف ٣٤٣/٣، وحاشية الشهاب ١٧.

البيان في النص:

{إنهم ألفوا أباءهم ضالين}: موقع إن موقع فاء السببية، ومعناها معنى لام التعليل فلذلك مفيدة فى ربط الجملة التي قبلها.

{فهم على آثارهم يُهرعون}: فاء العطف للتفريع والتسبب أي متفرع على إلفائهم آبائهم ضالين وهو ذم لهم. {على}: هنا للاستعلاء التقريبي[1].

وفي بناء الفعل للمفعول إشارة إلى مزيد رغبتهم في الإسراع على آثارهم.

وفي {يهرعون}: تشبيه حال الكفرة بحال من يرجى ويدفع إلى السير وهو لا يعلم إلى أين يُسار به[2].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ }: كرر القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الجملتين[3]. والتكرير لتقرير المعنى في نفس السامع وتثبيته وهو من الفنون البلاغية التي ازدهرت دراستها في ظل الدراسات القرآنية لأنه من خصائص الأسلوب القرآني الواضحة[4].

وقيل: خص المنذرين بهذا الوصف دون المرسلين لمناسبة حال المتحدث عنهم وأمثالهم، وضمير {فيهم} راجع إلى {الأولين} وقرع على هذا التوجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ترشيحاً

1- التحرير والتنوير ١٢٧/٢٣.
2- روح المعاني ٩٧/٢٣.
3- الكشاف ٣٤٣/٣، التحرير والتنوير ١٢٧/٢٣.
4- روح المعاني ٩٧/٢٣.

لما في الكلام السابق من جانب التسلية والتثبيت مع التعريض بالكلام لتهديد المشركين بذلك[1].

ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يسمع القرآن فشمل بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والأمر بالنظر مستعمل في التعجب والتهويل فإن أريد عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصري، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة فالنظر قلبي ولا مانع من إرادة الأمرين.

والتعريف في قوله: {المنذرَين} بالفتح تعريف العهد، وفعل النظر معلق على معموله بالاستفهام والاستفهام تعجبي للتفظيع[2].

وفي قوله: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ } جناس التحريف وهو تحريف الكلم عن مواضعه، وهو ما اتفق ركناه في عدد الحروف وترتيبها واختلفا في الحركات سواء كانا من اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من غير ذلك، فإن القصد اختلاف الحركات والمقدم فيه هو الغاية التي لا تدرك، والمراد من {منذرين}: الأولى الفاعلون وهم الرسل، والثاني {المنذرين} المفعولون وهم الذين وقع عليهم الإنذار[3].

1- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، ص ٢٠٠.
2- التحرير والتنوير ١٢٨/٢٣.
3- المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. أنعام، ص ٤٧٣، ٤٧٤، خصائص التعبير القرآني، ص ٤٣٧.

{إلا عباد الله المخلصين}: فيه قولان: أحدهما: إنه استثناء من قوله: {ولقد أضل قبلهم أكثر الأولين}. والثاني: أنه استثناء من قوله: {كيف كان عاقبة المنذرين}[1].

قال تعالى: { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ *وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ *إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ *ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}[2].

المعنى: ذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم لأن في كل قصة منها خاصية لها شبه بحال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه وبحاله الأكمل في دعوته ففي القصص كلها عبرة وأسوة وتحذير.

ولقد بدأ بقصة نوح عليه السلام وقدم هذه القصة على سائر القصص وذلك لبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى أو أخلصوا دينهم على القراءتين[3].

ولقد أختيرت هذه القصص ولأن نوحاً القدوة الأولى، وإبراهيم رسول الملة الحنفية، وموسى لِشَبَهِ شريعته بالشريعة الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان فهم أصول ثم ذكر ثلاثة رسل تفرعوا عنهم وهم وثلاثتهم على ملة رسل قبلهم، فأمَّا لوط فهو عل

1- الفخر الرازي، ١٤٤/١٣.
2- الصافات الآيات ٧٥ : ٨٢.
3- روح المعاني ٩٧/٢٣.

ملة إبراهيم، وأمَّا إلياس ويونس فعلى ملة موسى، وبدأ بنوح لأنه من أوائل الرسل المبعوثين إلى الناس وهو الأسوة الأولى والمثل والقدوة[1].

وابتدأ القصة بذكر نداء نوح ربه موعظة للمشركين ليحذروا دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لربه تعالى بالنصر عليهم كما دعا نوح على قومه وهذا النداء هو المحكي في قوله: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ}[2]. وكذا قوله: {قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا}[3].

والتنجية: الإنجاء وهو جعل الغير ناجياً والنجاة: الخلاص من ضر واقع؛ وأطلقت هنا على السلامة من ذلك قبل الوقوع فيه؛ لأنه لما حصلت سلامته في حين إحاطته الضر بقومه نزلت سلامته منه مع قربه منه بمنزلة الخلاص منه بعد الوقوع فيه تنزيلاً لمقاربة وقوع الفعل منزلة وقوعه، وهو إطلاق كثير للفظ النجاة بحيث يصح أن نقول: النجاة خلاص من ضر سواء وقع أو متوقع الحدوث[4].

والمعنى: ونجيناه من الغرق وأذى قومه، {وجعلنا ذريته هم الباقين} إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير نبيه وأزواجهم.

{وتركنا عليه في الآخرين}: من الأمم.

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٣٠.
2- سورة المؤمنون آية ٢٦.
3- سورة نوح ٢١.
4- التحرير والنوير ٢٣/١٣٠.

{سلام على نوح في العالمين}: هذا حكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً وقيل: هو سلام من الله عليه ومفعول تركنا محذوف مثل الثناء. و{في العالمين}: متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعاً.

{إنا كذلك نجزي المحسنين}: تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة على إحسانه.

{إنه من عبادنا المؤمنين}: أي المقصود وهو تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره فأصالة أمره.

{ثم أغرقنا الآخرين}: أي كفار قومه[1].

البيان في النص:

اللام في قوله: {فلنعم المجيبون}: جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فلنعم المجيبون نحن، وقد ذكر نوحاً نادى، ولم يذكر أن ذلك النداء في أي الوقائع كان؟، وفيه قولان:

الأول: أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق.

الثاني: أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في ايذائه وقصدوا قتله، ثم نادى ربه واستنصره على كفار قومه فأجابه الله تعالى.

1- حاشية الشهاب ٢٧٤/٧.

واحتج على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله وأجاب الله دعاءه فيه، فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتقين في دعائه.

ولقد عبر سبحانه عن ذاته بصيغة الجمع فقال: {ولقد نادنا نوح}: والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم .

والثاني: أنه أعاد صيغة الجمع في قوله: {فلنعم المجيبون} وذلك يدل على تعظيم تلك النعمة، والفاء في قوله: {فلنعم المجيبون} يدلّ على أن حصول هذه الإجابة مرتّب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبباً للحصول الإجابة[1]. والمخصوص بالمدح محذوف.

{ونجيناه وقومه من الكرب العظيم}: ووصف بالعظيم لإفادة أنه عظيم في نوعه والمعنى هو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه.

وضمير الفصل في قوله: {هم الباقين}: للحصر أي لم يبق أحد من الناس إلا من نجاه الله مع نوح في السفينة من ذريته ثم من تناسل منهم، فلم يبق من أبناء آدم غير ذرية نوح وجميع البشر من ذرية أولاد نوح الثلاثة المذكورين سابقاً[2].

{وتركنا عليه في الآخرين}: حقيقة الترك تخليف شيء والتخلي عنه وهنا المراد به الدوام على وجه المجاز المرسل وقيل

1- الفخر الرازي ١٤٤/١٣، ١٤٥.
2- التحرير والتنوير ١٣١/٢٣.

الإستعارة؛ لأن شأن النعم في الدنيا أنها متاع زائل؛ فكأن زوالها استرجاع من معطيها، ومفعول تركنا محذوف[١].

وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء والكلام وارد على الحكاية[٢].

{سلام على نوح}: معمول لقول مقدر أي وقلنا سلام، وقال أبو حيان مستأنفة سلم الله تعالى عليه عليه السلام ليقتدي بذلك البشر فلا يذكره أحد بسوء وقيل سلاماً بالنصب على أنه مفعول {تركنا}[٣].

{في العالمين}: هنا دعاء بثبوت هذه التحية لهم جميعاً وأن لا يخلو أحد منهم منها، ثم علّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلاله محلّ الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ويرغبك في تحصيله والازدياد منه[٤]. بقوله: {من شيعته}، وقيل: هو إنشاء ثناء الله على نوح وتحية له، ومعناه لازم التحية وهو الرضى والتقريب وتنوين {سلام} للتعظيم ولذلك شاع الابتداء بالنكرة؛ لأنها كالموصوف.

{في العالمين}: كناية عن دوام السلام عليه.

{إنا كذلك نجزي المحسنين}: تنويه بنوح عليه السلام بأن جزاؤه هو المثال.

1- التحرير والتنوير ١٣٢/٢٣، حاشية الشهاب ٢٧٤/٧.
2- روح المعاني ٩٩/٢٣.
3- روح المعاني ٩٩/٢٣.
4- الكشاف ٢٤٣/٣، ٢٤٤.

{إنه من عبادنا المؤمنين}: تعليل لاستحقاقه المجازاة الموصوفة بقوله: {كذلك نجزي المحسنين}.

وفي قوله: {عبادنا} إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة، واقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويهاً بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويقلع المشركون عن الشرك[1].

{المؤمنين}: وهو تشريف له بالإضافة، وفي هذا تنبيه عظيم على قدر الإيمان، وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حلّ بقوم نوح وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وجعل نوح قدوة له وإيماء إلى أن الله ينصره كما نصر نوحاً على قومه وينجيه من أذاهم، وتنويه بشأن المؤمنين.

{ثم}: للتراخي والترتيب. {في الآخرين}: التعبير بهذا الأسلوب فيه احتقار لمن عدا نوحاً وأهله.

قال تعالى: {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ *إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ *أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ *فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ *فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ *فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ *فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ *مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ *فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ *فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ *قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ *وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٣٤ : ١٣٥.

الْجَحِيمِ *فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ *وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ *رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ }[1].

المعنى: إن من شايع نوحاً وتابعه في أصول الدين {لإبراهيم} وذكر قصة إبراهيم عليه السلام بعد قصة نوح؛ لأنه كآدم الثالث بالنسبة للأنبياء والمرسلين لأنهم من ذريته إلا لوطاً وهو بمنزلة ولده عليهما السلام.

{إذ جاء ربه بقلبٍ سليم}: منصوب باذكر وجوّز تعلقه بفعل مقدر يدل عليه، وقيل: هو متعلق بشيعته لما فيه من معنى المشايعة، ورد بأنه يلزم عمل ما قبل لام الابتداء فيما بعدها ولا يجوز ذلك، وكذا يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي ولا يجوز وأجيب بأنه لا مانع من كل إذا كان المعمول ظرفاً لتوسعهم فيه.

{بقلب سليم}: من جميع الآفات كفساد العقائد والنيات السيئة والصفات القبيحة كالحسد والغل، وعن قتادة: "تخصيص السلامة بالسلامة من الشرك، وقيل سالم من العلائق الدنيوية بمعنى أنه ليس فيه شيء من محبتها والركون إليها وإلى أهلها وقيل: سليم حزين والباء للتعدية والمراد بمجيئه ربه إخلاصه قلبه له تعالى.

{إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون}: بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أي: أي شيء تعبدون؟[2].

1- الصافات ٨٣ : ١٠٠.
2- روح المعاني ٢٣/ ٩٩ – ١٠٠.

{أئفكاً آلهة دون الله تريدون}: أي تريدون آلهة من دون الله تعالى، أفكاً: أي للإفك فقدم المفعول به على الفعل ويجوز أن يكون "إفكاً: مفعولاً به بمعنى: أتريدون.

{آلهة} بدل إفك وجوز أن يكون حالاً من ضمير تريدون أي أفاكين أو مفعولة أو مأفوكة.

{فما ظنكم برب العالمين}: أي أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية أو أعلمكم أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى أو أي شيء ظنكم بعقابه عز وجل حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى،وكان قومه يعظمون الكواكب المعروفة ويتخذون لكل كوكب منها هيكلاً ويجعلون فيها أصناماً تناسب ذلك الكوكب بزعمهم ويجعلون عبادتها وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب، فاتفق أن دنا يوم عيد لهم يخرجون فيه فأرسل ملكهم إلى إبراهيم عليه السلام أن غداً عيدنا فأحضر معنا فاستشعر حصول الفرصة لحصول ما عسى أن يكون سبباً لتوحيدهم فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه ينكرونه عليه[1].

{فنظر نظرة في النجوم} .. الخ: مفرع على جملة {إذ قال لأبيه وقومه} تفريع قصص يعطف بعضها على بعض والمقصود من هذه الجمل المتعاطفة بالفاء هو الإفضاء إلى قوله: {فراغ إلى آلهتهم} وأمَّا ما قبلها فتمهيد لها، وبيان كيفية تمكنه من أصنامهم وكسرها ليظهر لعبدتها عجزها، أي نظر إلى السماء متفكراً.

1- روح المعاني ١٠١/٢٣.

وفي القرطبي عن الخليل والمبرد: "يقال للرجل إذا فكر في شيء يدبره نظر في النجوم مما جرى مجرى المثل في التعبير عن التفكير لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر وقيل: نظر فيما نجم له الرأي أي نجوم مصدر نجم بمعنى ظهر، وقيل: فكر في حيلة يخلو له بها نبذ أصنامهم، {إني سقيم} ليلزم مكانه ويفارقوه، {فنظر}: تقييد عرفي أي شيء وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله: {نظرة} إيماء إلى أن الله ألهمه المكيدة وأرشده إلى الحجة[1].

{فتولوا عنه مدبرين}: هاربين مخافة العدوى.

{فراغ إلى آلهتهم}: فذهب إليها في خفية من روغة الثعلب.

{فقال}: أي للأصنام استهزاء.

{ألا تأكلون}: يعني الطعام الذي كان لديهم.

{ما لكم لا تنطقون}: بجوابي.

{فراغ عليهم ضرباً باليمين}: فمال عليهم مستخفياً وضرباً مصدر لراغ عليهم لأنه في معنى ضربهم أو لمضمر تقديره فراغ عليهم يضربهم وتقييده باليمين للدلالة على قوته فإن قوة الآلة تستدعي قوة العقل، وقيل باليمين بسبب الحلف.

{فأقبلوا إليه}: أقبلوا إلى إبراهيم عليه السلام بعدما وجدوا أصنامهم كسرت فظنوا أنه هو.

1- التحرير والتنوير ١٤١/٢٣، ١٤٢، روح المعاني ٩٩/٢٣، ١٠٢. حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٦.

{يزفون}: يُسرعون من زف النعام وقرأ حمزة على بناء المفعول من أزف وقرأ يزف من وزف يزف إذا أسرع.

{قال أتبعدون ما تنحتون}: ما تنحتونه من الأصنام.

{والله خلقكم وما تعملون}: أي وما تعملونه[1].

{قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين}: الجحيم: النار الشديدة الوقود، وكل نار على نار وجمر فوق جمر فهو جحيم،وعبّر هنا {بالأسفلين}: وفي سورة الأنبياء بـ {الأخسرين} والأسفل هو المغلوب، والآخر هو من لم يحصل من سعيه على بغيته.

{وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين}: لما نجا الله تعالى نبيه إبراهيم من نارهم صمم على الخروج من بلده (أور الكلدانيين) وهذه أول هجرة في سبيل الله للبعد عن عبادة غير الله، والتوراة بعد أن طوت سبب أمر الله إياه بالخروج ذكر فيها أنه خرج قاصداً بلاد حران في أرض كنعان "وهي بلاد الفينيقيين" وقيل: إن الظاهر في هذا القول قوله علناً في قومه ليكفوا عن أذاه، وكان الأمم الماجنون يعدون الجلاء من مقاطع الحقوق، قال زهير:

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ولذلك لما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة لم تتعرض له قريش في بادئ الأمر ثم خافوا من انتشار دعوته فراموا

1- حاشية الشهاب على البيضاوي ٢٧٧/٧، ٢٧٨.

اللحاق به فحبسهم الله عنه، ويحتمل أن يكون قال ذلك في أهله الذين يريد أن يخرج بهم معه فمعنى {ذاهب إلى ربي} مهاجر إلى حيث أعبد ربي وحده ولا أفتن في عبادته.

وجملة {سيهدين}: حالاً لأنه أراد إعلام قومه بأنه واثق بربه ولا تردد في مفارقته لهم، ويجوز أن تكون استئنافاً.

وجملة {رب هب لي من الصالحين}: بعد أن أخبر أنه مهاجر استشعر قلة أهله وعقم امرأته وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه.

وقال الزمخشري: {هب} لفظ الهبة غلب في الولد وقد جاء في الأخ قوله تعالى: {ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً} ووصفه بأنه من الصالحين لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان الولد صالحاً فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء ومن صلاحهم برُّهم بوالديهم[1].

البيان في النص:

{وإن من شيعته لإبراهيم}: أكد الخبر بإن ولام الابتداء للرد على المشركين لأنهم يزعمون إنهم على ملة إبراهيم.

و{إذ} ظرف للماضي متعلق بالكون المقدر للجار والمجرور الواقعين خبراً عن {إنَّ} في قوله: {وإنَّ من شيعته لإبراهيم} أو

1- ينظر: الكشاف ١٤٨/٣، ١٤٩، والتحرير والتنوير ١٤٧/٢٣.

متعلق بلفظ شيعة لمافيه من معنى المشايعة والمتابعة أي كان من شيعته من جاء ربه بقلب سليم.

وفي {إذ} معنى التعليل لكونه من شيعته، والباء في {بقلب سليم} للمصاحبة، أي جاء معه قلب صفته السلامة فأول إلى معنى إذ جاء ربه بسلامة قلب، وأطلق المجيء على وجه التمثيل[١].

وذكر القلب ابتداء لما في ذكر القلب من إحضار حقيقة ذلك القلب النزيه، ولذلك نكّر القلب، و{سليم}: صفة مشبهة مشتقة من السلامة، وهي الخلاص من العلل والأدواء[٢].

وسقم قلبه: حزنه وغمه، بجعل ذلك مرضاً على طريق التشبيه أو هو مجاز باستعماله في لازمه وهو الخروج عن الاعتدال فإن الاعتدال الحقيقي غير موجود، أو أراد استعداده للموت استعداد المريض فهو استعارة أو مجاز مرسل، وإنما أولوه لأنه معصوم من الكذب حيث عدل علن التصريح إلى التحريض[٣].

وتعليق كونه من شيعة نوح كناية عن وصف نوح بسلامة القلب[٤].

{إذ قال لأبيه}: بدل من قوله: {إذ جاء ربه بقلبٍ سليم} بدل اشتمال.

1- والتحرير والتنوير ١٤٧/٢٣.
2- التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٦، ١٣٧.
3- حاشية الشهاب ٢٧٦/٧.
4- التحرير والتنوير ١٣٧/٢٣.

{ماذا تعبدون}: استفهام إنكاري، وأتبعه استفهام إنكار آخر وهو: {أئفكاً آلهة دون الله تريدون}: والجملة السابقة بيان لجملة: {ماذا تعبدون} بمعنى كيف تريدون آلهة إفكاً، وإرادة الشيء ابتغاؤه والعزم على حصوله وحق فعلها أن يتعدى إلى المعاني، قال ابن الدمينة:

تريدين قتلي وقد ظفرت بذلك

فانتصب {آلهة} على المفعول وقدم المفعول على الفعل للاهتمام به وفيه دليل على جهة تجاوز معنى الفعل للمفعول وانتصب "إفكاً" على الحال من ضمير "تريدون" أي: آفكين، ويجوز أ، يكون حالاً من آلهة، والوصف بالمصدر صالح لاعتبارات معنى الفاعل أو معنى المفعول، وقدمت الحال على صاحبها للاهتمام والتعجيل بالتعبير عن كذبهم وضلالهم[1]. وفيه رعاية للفاصلة القرآنية[2].

{فما ظنكم برب العالمين}: استفهام إنكاري والمعنى: فما ظنكم السيئ بالله، والظن من أفعال القلب فتعديه إلى اسم الذات دون اتباع الاسم يوصف متعينه لتقدير وصف مناسب، وقد حذف المتعلق هنا لقصد التوسع في تقدير المحذوف بكل احتمال مناسب تكثيراً للمعاني، فيجوز أن تعتبر من ذات رب العالمين، أوصافه ويجوز أن، يعتبر منها الكني والحقيقة[3].

1- حاشية الشهاب ٢٧٦/٧، الكشاف ٣٤٤/٣، الرازي مجلد ١٤٦/١٣.
2- روح المعاني ١٠٠/٢٣.
3- التحرير والتنوير ١٤٠/٢٣.

{فنظر نظرة في النجوم}: جاء بحمل متعاطفة بالفاءات والقصد الإفضاء إلى قوله {فراغ إلى آلهتهم} وما قبلها تمهيد لها، والتعقيب في {فنظر} تعقيب عرفي وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله {نظرة} إيماء إلى أن الله ألهمه المكيدة، وأرشده إلى الحجة، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ }[1].

"وفى" قوله السابق من المعاني البلاغية لصيغة الأمر وهي تستعمل في غير الطلب لتفيد معاني عدّة أخرى تعرف من السياق وقرائن الأحوال وفي القرآن الكريم نجد النظم كله بكلماته وإيقاعاته يُسهم في تجلية المعنى وبعث الحياة فيه، وهذه المعاني أوصلها السبكي خمسة وعشرين[2]. والآية التي معنا من قبيل إثارة التأمل والاعتبار[3].

وقوله: {إني سقيم}: من التعريض أي سأسقم لأن من كتب عليه الموت لابد أن يسقم[4]. أو أراد إني سقيم القلب[5]. وهو إما تشبيه أو هو مجاز باستعماله في لازمه وهو الخروج عن الاعتدال أو استعارة ومجاز مرسل[6].

1- الأنبياء ٥١.
2- عروس الأفراح ٣١٢/٢ : ٣٢٢.
3- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص ١٦،١٧.
4- البلاغة القرآنية ص ٢٢٧، ط. ١٩٨٨م، وروح المعاني ١٠١/٢٣، ١٠٢.
5- حاشية الشهاب ٢٧٦/٧.
6- حاشية الشهاب ٢٧٦/٧.

{مدبرين}: قيل هو حال وقيل هو حال مؤكدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولي غالباً لدفع توهم أنه تولى مخالفة وكراهة دون انتقال[١].

وقيد الضرب باليمين لتأكيد ضرباً أي ضرباً قوياً ونظيره قوله تعالى: {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}[٢]. وقول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليـــمين

{فأقبلوا إليه}: تعقيب نسبي وجملة:{قال أتعبدون ما تنحتون} استئناف بياني؛ لأن إقبال القوم إلى إبراهيم عليه السلام بحالة تنذر بحنقهم وإرادة البطش به يثير في نفس السامع تساؤلاً عن حال إبراهيم فيكون {قال أتعبدون} .. الخ جواباً وبياناً لما يُسأل عنه[٣].

{أتعبدون ما تنحتون}: فيما سبق وجه الإنكار إلى الفاعل لأسباب تقتضي نفي الفعل عنه وهنا الإنكار توبيخي ومعناه في الماضي ما كان ينبغي أن يكون، وفي المضارع لا ينبغي أن يكون[٤].

قيل: إن كانت الأصنام من الخشب فإطلاق النحت حقيقة، وإن كانت من حجارة فإطلاق النحت مجاز، والاستفهام إنكاري[٥].

1- التحرير والتنوير ١٤٣/٢٣.
2- سورة الحاقة ٤٥.
3- التحرير والتنوير ١٤٤/٢٣، ١٤٥.
4- معاني التراكيب د. عبدالفتاح لاشين، ١٠٠/٢، ١٠١.
5- التحرير والتنوير ١٤٥/٢٣.

{والله خلقكم} ... الخ الواو للحال مستعملة في التعجب، لأن في الكلام حذفاً بعد واو الحال، والتقدير: ولا تعبدون الله وهو خلقكم وخلق ما نحتموه، و"ما" موصولة والرابط محذوف أي وما تعملونها وعدل عن إعادة فعل {تنحتون} لكراهة تكرير الكلمة فلما تقدم لفظ {تنحتون} علم أن المراد بـ {ما تعملون} ذلك المعمول الخاص وهو المعمول للنحت؛ لأن العمل أعمّ[1].

و{ما}: في الأول موصولة وفي الثاني كذلك لئلا ينفك النظم، وأيد بأن الأسلوب يصير من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح ولا فائدة في العدول عن الظاهر[2].

{فألقوه في الجحيم}: اللام بدل من المضاف إليه أو للعهد، وعبر هنا بالأسفلين وفي سورة الأنبياء: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}[3]. والأسفل هو المقلوب لأن الغالب يتخيل معتلياً على المقلوب فهو استعارة للمغلوب والأخسر هناك استعارة لمن لا يحصل من سعيه على بغيته[4].

{سيهدين}: يجوز أن تكون حالاً وهو الأظهر لأنه أراد إعلام قومه بأنه واثق بربه، ويجوز أن تكون استئنافاً، فعلى الأول هي حال من اسم الجلالة ولا يمنع من جعل الجملة حالاً اقترانها بحرف

1- التحرير والتنوير ١٤٥/٢٣.
2- ينظر: حاشية الشهاب ٢٧٧/٧، ورح المعاني ١٢٥/٢٣.
3- الأنبياء، ٧٠.
4- التحرير والتنوير ١٤٦/٢٣.

الاستقبال فإن حرف الاستقبال يدل على أنها حال مقدرة، والتقدير إني ذاهب إلى ربي مقدراً.

{رب هب لي من الصالحين}: يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ فحذف مفعول الفعل لدلالة الفعل عليه ووصفه بأنه من الصالحين؛ لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً[1].

قال تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ *وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ *وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ *وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ }[2].

المعنى:

{فبشرناه بغلام حليم}: أي بشر بالولد بأنه ذكر يبلغ أوان الحلم فإن الصبي لا يوصف بالحلم ويكون حليماً وأي حلم مثل حلمه حين عرض عليه والده ذبحه وهو أمر شديد، فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وقيل: ما نعتَ الله بالحِلمَ نبياً لعزة وجوده غير

1- الكشاف ٣٤٧/٣.
2- الصافات ١٠١ : ١١٣.

(إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام) وما حدث منهما عليهما السلام يشهد لهما بذلك.

{فلما بلغ معه السعي}: أي يسعى معه في أعماله وكان الابن حين ذاك ثلاثة عشرة عاما.

{قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك}: قيل: يحتمل أنه رأى ذلك أو ما هو تعبيره، وقيل أنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روى أنه من الله سبحانه أو من الشيطان، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمّ بنحره وقال له ذلك، ولهذا سميت الآيات الثلاث بالتروية وعرفه.

وقيل: أن الأظهر المخاطب هو إسماعيل عليه السلام ولأن البشارة بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام: (أنا ابن الذبيحين}، ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام[1].

{فانظر ماذا ترى}: أي من الرأي والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر، وقرأ الجمهور {ما ذا ترى} بفتح التاء والراء، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء: {ماذا تري} من امتثال أو عدمه.

قال: {يآ أبت افعل ما تؤمر}: دون عطف وابتدأ الجواب بالنداء واستحضار المنادى وصف الأبوة للتحنين والترقيق.

1- حاشية الشهاب ٢٩٧/٧، وينظر في قصة الذبيح كاملة: الفخر الرازي ١٥٢/١٣-١٥٧.

{ستجدني إن شاء الله من الصابرين}: أي على الذبح وعلى قضاء الله تعالى.

{فلما أسلما وتله للجبين}: استسلم لأمر الله تعالى، أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه، أو أنه سلم من المنازعة فيه.

{وتله للجبين}: صرعه على جنبه استعداداً، وكان ذلك عند الصخرة بمنًى، أو في الموضع المشرف على مسجده.

{وناديناه أن يآ إبراهيم قد صدقت الرؤيا}: بالعزم والإتيان بالمقدمات، وقيل: أمر السكين بقوة على حلقه فلم تقطع.

{إنا كذلك نجزي المحسنين}: هو تعليل لإفراج تلك الشدّة عنهما بإحسانهما.

{إن هذا لهو البلاء المُبين}: الابتلاء الذي يتبين فيه المخلص من غيره، أو المحنة البينة الصعوبة.

{وفديناه بذبح عظيم}: عظيم الجثة ثمين أو عظيم القدر؛ لأنه يفدى به الله نبياً ابن نبي من نسله خاتم المرسلين، وروي أنه هرب منه عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقال سبحانه: {وفديناه}؛ لأن الإعطاء من الله تعالى والآمر به الله على التجوز في الفداء[1].

1- حاشية الشهاب ٢٨١/٧، ٢٨٢.

{وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم}: ثناءً حسناً وسلام منا على إبراهيم كما جزيناه نجزي المحسنين لأنفسهم.

{إنه من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق}: واستدل بذلك على أن الذبيح حال المقدرة.

{نبياً من الصالحين وباركنا عليه}: بتكثير ذريته.

{ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبين}: أي ومن ذريته مؤمن وكافر[1].

البيان في النص:

{فبشرناه بغلام حليم}: الفاء للتعقيب والبشارة بشارة كرمة، وهي الإخبار. {فلما بلغ معه السعي} بفاء فصيحة؛ لأنها مفصحة عن مقدر، وقوله: {معه}: متعلق بالسعي والضمير المستتر في {بلغ} للغلام والضمير المضاف إليه معه عائد إلى إبراهيم و{السعي}: مفعول {بلغ} ولا حجة لمن منع تقدم معمول المصدر عليه، على أن الظروف يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها من المعمولات، والحذف هنا هو إيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح به.

ونجد أن "مع" ظرف للسعي، وهي تدل على معنى الصحبة وتعلقها بمحذوف دل عليه المذكور {السعي} فلما بلغ السعي حال كون ذلك السعي كائناً معه، وفيه أن السعي معه معناه اتفاقهما فيه فالصحبة بين الشخصين فيه، وما قدره يقتضي الصحبة بين السعي

1- الصاوي على الجلالين ٣/٢٨٥، ٢٨٦.

وإبراهيم عليه السلام ولا يطابق المقام، وجوز تعلقه ببلغ، ورد بأنه يقتضي بلوغهما معاً حد السعي لما سمعت من معنى مع وهو غير صحيح، فأجيب بأن مع على ذلك لمجرد الصحبة على أن تكون مرادفة عند نحو فلان يتغنى مع السلطان أي عنده، ويجوز على ذلك أن تتعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل "بلغ" .. والجملة الأولى تعلقها بالسعي، والتخصيص لأنه الأكمل في الرفق.

{قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك}[1]: فيها تأكيد لما في تحقق المخبر به من الاستبعاد وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة وقيل في الأول لتكرر الرؤية، وفي الثاني للاستحضار المذكور أو لتكرر الذبح حسب تكرر الرؤيا أو للمشاكلة[2].

{يآ أبت افعل ما تؤمر}: ابتدأ بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن، وعبّر بقوله: {ما تؤمر}: عن الذبح دون أن يقول: اذبحني، يفيد وحده إيماء إلى السبب الذي جعل جوابه امتثالاً لذبحه وحذف المتعلق بفعل {تؤمر} لظهور تقديره أي ما تؤمر به وبقي الفعل كأنه من الأفعال المتعدية ويسمى هذا بالحذف والإيصال كقول عمرو بن معد يكرب:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

فقد تركتك ذا مال وذانسب

1- روح المعاني ١٢٧/٢٣، ١٢٨.
2- روح المعاني ١٢٩/٢٣.

لفظ الجزاء من معنى المكافأة ومماثلة المجزي عليه عظم شأن الجزاء بتشبيهه بمشبه مشار إليه بإشارة البعيد المفيد بُعداً اعتبارياً وهو الرفعة وعظم القدر في الشرف، فالتقدير: إنا نجزي المحسنين جزاء كذلك الإحسان الذي أحسنت به بتصديقك الرؤيا مكافأة على مقدار الإحسان فالمشبه والمشبه به معقولان؛ لأنهما متخيلان، بما يتسع له التخييل المعهود عند المحسنين[1]. مما يقتضيه اعتقادهم في وعد الصادق، قال تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ }[2].

ولما أفاد اسم الإشارة من عظمة الجزاء أكد الخبر بـ "إن" لدفع توهم المبالغة أي هو فوق ما تعهده فى العظمة وما تقدره العقول.

واستعمل لفظ البلاء مجازاً في لازمه وهو الشهادة بمرتبة من لو اختبر بمثل ذلك التكليف، وجملة: {إن هذا لهو البلاء المبين}: في محل العلة لجملة: {إنّا كذلك نجزي المحسنين}، وجواب: {فلما أسلما} محذوف دل عليه قوله: {وناديناه} وجيء به في صورة العطف إيثاراً لما في ذلك من معنى القصة على أن يكون جواباً لأن الدلالة على الجواب تحصل بعطف بعض القصة دون العكس، وحذف الجواب في مثل هذا كثير في القرآن.

وجملة {وفديناه}: خطاب من الله تعالى إلى إبراهيم، والفدى والفداء إعطاء شيء بدلاً عن حق للمعطي، ويطلق على الشيء المفدي به من إطلاق المصدر على المفعول.

1- حاشية الشهاب ٢٨٢/٧، التحرير والتنوير ١٥٤/٢٣.
2- الرحمن، آية ٦٠.

وأسند الفداء إلى الله؛ لأنه الإذن فهو مجاز عقلي، ووصفه بعظيم؛ لشرف قدر هذا الذبح وهو تعظيم له بعظم أثره[1].

{إنا كذلك نجزي المحسنين}: إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما يشير إليه فيما سبق فلا تكرار، {إنَّا} مبالغة في دفع توهم اتحاده.

{وتركنا عليه} .. الخ: فيه حذف اقتصاراً.

و{بشرناه بإسحاق نبياً}: حال من إسحاق وكذا في قوله: {من الصالحين}: وفي ذلك تعظيم شأن الصلاح وفي تأخيره إيماء إلى أنه الغاية لتضمنها معنى الكمال والتكميل والمقصود منهما الإتيان بالأفعال الحسنة، وجوز كون من {الصالحين} حالاً و{نبياً}: حالاً من الضمير المستتر فيه، وقدم في اللفظ للاهتمام ولئلا تختل رؤوس الآي، وجوز كونه في موضع الصفة لنبياً.

{وباركنا عليه وعلى إسحاق}: قرئ {وبركنا}: بالتشديد للمبالغة[2].

قال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٥٥، ١٥٦.
2- التحرير والتنوير ٢٣/١٦٠، ١٦١.

تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }[1].

المعنى:

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكور في هذه السورة الكريمة وهنا أشار الله تعالى إلى إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه، والله تعالى ذكر النوعين هنا وهما منافع الدنيا، ومنافع الدين، أمّا منافع الدنيا فهي: الوجود والحياة والعقل والتربية والصحة، وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما.

وأما منافع الدين: العلم والطاعة وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات.

أما القسم الثاني من دفع الضر فهو المراد من قوله: {ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم}: قيل أنه الغرق، أغرق الله فرعون وقومه، ونجى الله بني إسرائيل، وقيل: المراد هو أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون، ولما ذكر الله أنه منّ على موسى وهارون

1- الصافات الآيات ١١٤ : ١٣٨.

فصل سبحانه أقسام تلك المنة والهاء في قوله: {ونصرناهم} عائدة على موسى وهارون.

{وكانوا هم الغالبين}: في كل الأحوال بداية بالحجة وآخراً بالرفعة.

{وآتينهما الكتاب المستبين}: المراد منه التوراة.

{وهديناهما الصراط المستقيم}: أي دللناهما على طريق الحق عقلاً وسمعاً.

{وتركنا عليهما في الآخرين}: وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل.

{سلام على موسى وهارون} وهو كلام الله تعالى. {إنا كذلك نجزي المحسنين} أي كما جزينهما، {إنهما من عبادنا المؤمنين} والغرض منه هو التنبيه على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل.

{وإن إلياس لمن المرسلين}: هي القصة الرابعة من القصص المذكور في هذه السورة، قال ابن مسعود: إن إلياس هو إدريس عليه السلام، وقيل: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل هو إلياس بن ياسين من ولد هارون.

{إذ قال لقومه ألا تتقون}: والتقدير اذكر يا محمد لقومك {إذ قال لقومه ألا تتقون}: أي ألا تخافون الله، وقيل ألا تخافون عبادة غير الله.

{أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين}: في بعل قولان: "أحدهما": أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة، وهبل، وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه وفتنوا به وعظموه، "ثانيهما": أن البعل هو الرب بلغة اليمن، يقال: بعل هذه الدار، أي من ربها، وسمي الزوج بعلاً، لقوله تعالى: {وبعولتهن أحق بردهن}[1]. وقوله تعالى: {هذا بعلي شيخاً}[2]. فعلى هذا القول أتبعدون بعولاً وتتركون عبادة الله.

{الله ربكم ورب آبائكم الأولين}: كلها بالنصب على البدل من قوله {أحسن الخالقين} والباقون بالرفع على الاستئناف.

{فكذبوه فإنهم لمحضرون}: لمحضرون النار غداً.

{إلا عباد الله المخلصين}: أي الذين أتوا بالتوحيد الخالص.

{وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إل ياسين}: إذ قلنا بأن إلياس ابن يس فيكون إلياس آل ياسين وعلى إضافة آل إلى لفظ ياسين، أو آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم، أو أن ياسين اسم للقرآن.

{إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }..

1- البقرة ٢٢٨.
2- هود ٧٢.

هذه هي القصة الخامسة وذكر سبحانه هذه القصة ليتعظ بها مشركوا العرب فإن الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجواً، وذكر: {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين} .. الخ: لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام، والمسافر في أكثر الأمر يمشي في الليل، وفي أول النهار، فلذلك عين الوقتين السابقين.

{أفلا تعقلون}: أي أليس فيكم عقول تعتبرون بها[١].

البيان في النص:

{ولقد منا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم}: من قبيل عطف الخاص على العام[٢].

{ونصرناهم}: عائد على الجماعة المتقدم ذكرها، وهم: موسى وقارون وقومهما، وقد أخرج ضميرهما ضمير الجمع تفخيماً وهذا مما تفعله العرب تكنى عن تعظيم بكناية الجمع[٣].

{هم الغالبين}: هم ضمير فصل يفيد القصر[٤].

{الكتاب المستبين}: السين والتاء للمبالغة، يقال: استبان الشيء إذا ظهر ظهوراً شديداً.

{وآتيناهما}: تعدى فعل الإيتاء إلى ضمير موسى وهارون مع أن الذي أوتي التوراة هو موسى لأن هارون كان معاهداً لموسى في

1- الفخر الرازي، ١٥٩/١٣ : ١٦٣.
2- روح المعاني ١٣٨/٢٣.
3- المحرر الوجيز ص ٢٥٢.
4- التحرير والتنوير ١٦٤/٢٣.

رسالته، فكان لـه حظ من إيتاء التوراة، كما قال تعالى:{ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً}[1].

وقد استعمل الإيتاء في المعنى الحقيقي وكذا في المجازي[2].

وهو أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتنزل الأولى المقتضيه للسؤال المقدر منزلة السؤال الواقع لكونها مشتملة علية ومقتضية له فتفصل الجملة الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من قوة الإرتباط وسمى بذلك لما بين الجملتين من الربط القوى {الصراط المستقيم}: وهذا شبه كمال اتصال في عرف البلاغيين، و{الصراط المستقيم}: استعارة عن ملة الإسلام، حيث شبه الإسلام بالطريق المستقيم الذي لا عوجَ فيه بجامع الهداية التي تؤدي إلى الاستقامة سواء في الطريق المستقيم أو في الإسلام، وهناك لطيفة هي أن العبد الطالب للإيمان لابد لـه من قطع المسافات، واحتمال المكاره والآفات، ليكرم بالوصول والموافاة. وليس أصدق من ذلك غير الطريق بما يحفه من الأخطار وطول المسافات.

وفي قولـه: {وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم}: من الموازنة، فمن العلماء من عدّها من ضروب السجع، ومنهم من لم يعدها منه[3]. وهي تساوي الفاصلتين، وهذه الآية

1- الفرقان، آية ٤٨.
2- التحرير والتنوير ١٦٤/٢٣.
3- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ١١٧، ١١٨.

إحدى ما في القرينتين أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن، لذا فيها مماثلة.

{وإنّ إلياسَ لمنَ المرسلين}: أتبْع الكلام على رسل ثلاثة أصحاب الشرائع [نوح – إبراهيم – موسى] بالخبر عن ثلاثة أنبياء وذلك تسلية للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأكد إرسالهم بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر..

{ألا تتقون}: همزة الاستفهام للإنكار و{لا} نافية إنكار لعدم تقواهم، وحذف مفعول {تتقون} لدلالة ما بعده عليه، وقد عدل سبحانه عن تدعون إلى {تذرون} مع مناسبته ومجانسته لتدعون قيل أن في ذلك نوع تكلف والجناس المتكلف غير ممدوح عند البلغاء ولا يمدح عندهم ما لم يجيء عفواً بطريق الاقتضاء، ولذا ذمّوا متكلفه فقيل فيه:

طبع المجنس فيه نوع قيادة
أو ما ترى تأليفه للأحـــرف

قال الخفاجي: {وفي كون هذا البيت في خصوص المتكلف نظر، وبعد فيه ما فيه، الثاني: أن في تدعون إلباساً على من يقرأ في المصحف دون حفظ من العوام فيظن انكار بين دعاء بعل، الثالث: أن التجنيس تحسين ويستعمل في مقام الرضا والإحسان لا في مقام الغضب والتهويل، وفيه بأن دع أمر بالترك قبل العلم وذر أمر غير علة إنكار الآخر فترك التجنيس رمزاً إلى شدة المغايرة بين الفعلين:

السادس: أنه لما لم يكن مجانسة بين المفعولين بوجه من الوجوه ترك التجنيس في الفعلين المتعلقين بهما، وإن كانت المجانسة المنفية بين المفعولين شيئاً والمجانسة التي نحن بصددها بين الفعلين شيئاً آخر.

السابع: أن يدع يستعمله العرب في الترك الذي لا يذمّ مرتكبه لأنه من الدعة بمعنى الراحة، ويذر بخلافه؛ لأنه يتضمن إهانة وعدم اعتداء لأنه من الوذر.

الثامن: أن يدع أخص من يذكر؛ لأنه بمعنى ترك الشيء مع اعتناء به بشهادة الاشتقاق نحو الإيداع فإنه ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها.

وقال الراغب: يقال فلان يذر الشيء أي يقذفه لقلة الاعتداد به، ومنه الوذر ولا شك أن السياق يناسب هذا دون غيره، إذ المراد تبشيع حالهم في الإعراض عن ربهم.

تاسعاً: أن في تدعون بفتح التاء والدال ثقلاً ما لا يخفى على ذي الذوق السليم والطبع المستقيم {وتذرون} سالم عنه، فلذا اختير عليه.

وقد أشار سبحانه بقوله: {أحسن الخالقين} إلى المقتضى للإنكار وصرح به للاعتناء بشأنه في قوله تعالى: {الله ربكم ورب آبائكم الأولين} بالنصب على البداية من أحسن الخالقين، ويجوز أن يكون ذلك عطف بيان و{ربكم} خبره أو هو خبر مبتدأه محذوف وربكم عطف بيان أو بدل منه.

وتعرض سبحانه لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم الأولين لتأكيد إنكار تركهم إياه تعالى، والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً.

{إلا عباد الله المخلصين}: استثناء متصل من الواو في كذبوه، ومنع كونه استثناء متصلاً من ضمير {محضرون}؛ لأنه للمكذبين فإذا استثنى منه اقتضى أنهم كذبوه[1].

{وتركنا عليه في الآخرين} .. الخ: رعاية للفواصل {إل ياسين} بالإضافة وفي الكناية عنه تفخيم له، وجوز أن يكون الآل مفخماً على أن إل ياسين هو إلياس نفسه.

{مصبحين وبالليل}: مقابلة غير متكلفة.

يقال مر عليه ومر به، وتعديته بحرف "على" تفيد تمكن المرور أشد من تعديته بالباء وهي للظرفية والخبر الذي في قوله: {وإنكم لتمرون عليهم} مستعمل في الايقاظ والاعتبار لا في حقيقة الإخبار وتأكيده بحرف التوكيد وباللام تأكيد للمعنى الذي استعمل فيه وذلك مثل {وإنها لبسبيل مقيم}[2]. وفرع على ذلك بالفاء استفهام إنكاري[3].

1- روح المعاني ١٤٠/٢٣، ١٤٢، ينظر: تفسير أبي السعود ٢٠٤/٧.
2- الحجر ٧٦.
3- التحرير والتنوير ١٧١/٢٣، ١٧٢.

قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ *فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ *فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ *لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ *وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ *فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ * فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ *وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }[1].

والمعنى:

{أبق}: بمعنى هرب، وأصله الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه.

{إلى الفلك المشحون}: المملوء.

{فساهم فكان من المدحضين} من المغلوبين بالقرعة، روى أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله بذلك، فركب السفينة فوقعت فقالوا: ههنا عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال: أنا الآبق، ورمى بنفسه في الماء.

{فالتقمه الحوت}: ابتلعه من اللقمة.

1- الصافات، الآيات ١٣٩ : ١٥٧.

{وهو مليم}: داخل في الملامة، أو آت بما يُلام عليه أو مليم نفسه.

{فلولا كان من المسبحين}: من سبح إذا قال: سبحان الله[1].

وقيل: و{كان من المسبحين} بقوله: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }[2].

{إلى يوم يبعثون}: التأبيد بأن يميت الله الحوت حين ابتلاعه ويبقيهما في قعر البحر أو بأن يختطف الحوت في حجر في البحر أو نحوه فلا يطفو على الماء حتى يبعث يونس يوم القيامة في البحر[3].

{فنبذناه بالعراء وهو سقيم}: العراء المكان الخالي وقيل: عراء؛ لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه، وأضاف النبذ إلى نفسه وهو حصل بفعل الحوت، وهذا يدلّ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى.{وهو سقيم} بلى لحمه.

{وأنبتنا عليه شجرة من يقطين}: شجر يمتد على وجه الأرض ولا يقوم على ساق[4].

{وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون}: بعد ذلك إلى قوم من أرض الموصل. {إلى مائة ألف أو يزيدون}: عشرون أو ثلاثون أو سبعون ألفاً.

1- حاشية الشهاب ٢٨٥/٧، ٢٨٦.
2- الأنبياء ٨٧.
3- التحرير والتنوير ١٧٧/٢٣.
4- الفخر الرازي ١٦٥/١٣.

{فآمنوا}: عند معاينة العذاب الموعودين به.

{فمتعناهم}: أبقيناهم ممتعين بمالهم.

{إلى حين}: تنقضي آجالهم.

{فاستفتهم}: استخبر كفار مكة توبيخاً لهم.

{ألربك البنات ولهم البنون}: بزعمهم.

{أم خلقنا الملائكة إناثاً وهو شاهدون}: أم شهدوا فيقولون ذلك.

{ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله}: بقولهم الملائكة بنات الله.

{وإنهم لكاذبون}: في هذا القول الفاسد.

{أفلا تذكرون}: لأنه تعالى منزّهٌ عن الولد.

{أم لكم سلطان مبين}: حجة واضحة أن لله ولد.

{فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين} التوراة فأروني ذلك فيه إن كنتم صادقين في قولكم ذلك[1].

البيان في النص:

{إذا}: ظرف متعلق بـ {المرسلين}، {أبق}: أصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه كما هو الأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام حسُن إطلاقه عليه فهو هنا استعارة أو

1- الصاوي على الجلالين ٢٨٨/٣، ٢٨٩، المحرر الوجيز ٢٥٧/١٣ : ٢٥٨.

مجاز مرسل من استعمال المفيد في المطلق[١]. والاستعارة أبلغ، لأنه استعير الاباق لهربه باعتبار هذا القيد باعتبار القيد الأول، أي أنها استعارة تمثيلية شبهت حالة خروجه من البلد الذي كلفه ربه فيه بالرسالة تباعداً من كلفة ربه بإباق العبد من سيده الذي كلفه عملا[٢].

وتفريع {فساهم}: يؤذن بجمل محذوفة تقديرها: فهال البحر، وخاف الراكبون الغرق، فساهم، وهذا نظير التفريع في قوله تعالى: {أن اضرب بعصاك البحر فانفلق}[٣]. والادحاض جعل المرء داحضاً أي زالقاً غير ثابت الرجلين، وهو استعارة للخسران والمغلوبية.

{فنبذناه بالعراء}: الفاء فصيحة تفصح عن كلام مقدر دل عليه قوله:{فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه} وقيل الإسناد مجازي.

{وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون}: فيه ترتيب ذكر الإرسال بعد الإنجاء من الحوت[٤].

{أو} قيل: بمعنى "بل" أو بمعنى الواو، وقيل: هي للإبهام على المخاطب والمقصود بيان كثرتهم أو أن الزيادة ليست مفرطة وهو معطوف على جملة {أرسلناه}[٥].

1- روح المعاني ١٤٣/٢٣.
2- التحرير والتنوير ١٧٣/٢٣.
3- التحرير والتنوير ١٧٣/٢٣، حاشية الشهاب ٢٨٥/٧.
4- التحرير والتنوير ١٧٣/٢٣، روح المعاني ١٤٥/٢٣.
5- روح المعاني ١٤٧/٢٣.

{فآمنوا}: قيل إنه تعقيب، وقيل: الأقرب أن الفاء للتفصيل أو السببية،وأجيب: أنه يجوز أن يكون الإيمان المقرون بحرف التعقيب إيماناً مخصوصاً أوآمنوا بتأويل أخلصوا الإيمان وجددوه[1].

{فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون}: هو تفريع على ما تقدم من الإنكار على المشركين وإبطال دعاويهم، وضرب الأمثال لهم بنظائره من الأمم ففرع عليه أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من ولد فضمير الغيبة في قوله: {فاستفتهم} عائد على غير مذكور يُعلم من المقام، والمراد هنا: هو التهكم عليهم بصورة الاستفتاء إذ يقولون ولد الله على أنهم قسموا قسمة ضيزى، فجملة {ألربك البنات} بيان لجملة {فاستفتهم}.

وضمير {لربك}: مخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم، وهو حكاية للاستفتاء بالمعنى، وكذلك ضمير {ولهم} محكي بالمعنى، وهذا التصرف يقع في حكاية القول ونحوه مما فيه معنى القول مثل الاستفتاء[2].

{أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون}: أم منقطعة بمعنى "بل" وهي لا يفارقها معنى الاستفهام، فالكلام بعدها مقدر بهمزة الاستفهام وضمير {خلقنا} التفات من الغيبة إلى التكلم لزيادة التبكيت، والاستفهام إنكاري وتعجيبي من جرأتهم، وقولهم بلا علم، وجملة {وهم شاهدون}: في موضع الحال وهي قيد للإنكار، وضمير {وهم شاهدون} محكي بالمعنى في الاستفتاء {ألا إنهم من إفكهم

1- التحرير والتنوير ١٧٩/٢٣، ١٨١.
2- التحرير والتنوير ١٨١/٢٣.

ليقولون}: ارتقاء في تجهيلهم بأنهم يقولون المستحيل فضلاً عن القول بلا، والجملة معترضة بين جمل الاستفتاء {ألا} حرف تنبيه للاهتمام بالخبر.

وعطف بقوله: {وإنهم لكاذبون} مؤكداً "بإن" واللام أي شأنهم الكذب في هذا وفي غيره من باطلهم فليست الجملة تأكيداً لقوله {من إفكهم} كيف وهي معطوفة[1].

قال تعالى: {اصطفى البنات على البنين} هنا إنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله فهنا ردّ على المشركين وتكذيب لهم لجهلهم في هذا القول.

{أم لكم سلطان مبين}: إضراب وانتقال.

{فأتوا بكتابكم}: إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر فأتوا به وهو من إضافة المصدر من توبيخهم وتبكيتهم إلى المفعولين على طريقة الحذف والإيصال[2].

{إن كنتم صادقين}: الأمر للتعجيز وإضافة الكتاب إليهم: للتهكم وفي الآيات من الإنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم، والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم مع استهزاء بهم وتعجب من جهلهم[3].

1- التحرير والتنوير ١٨٢/٢٣، وينظر: الرازي ١٦٦/١٣، ١٦٧.
2- التحرير والتنوير ١٨٤/٢٣، ١٨٥.
3- روح المعاني ١٥٠/٢٣، ١٥١.

قال تعال: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ *مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ *وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ *وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ *وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ *لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }[1].

والمعنى:

{وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً}: يعني الملائكة ذكرهم باسم جنسهم وصفاً منهم أن يبلغوا هذه المرتبة وقيل: قالوا إن الله تعالى صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل: قالوا الله والشياطين إخوان و العياذ بالله.

{ولقد علمت الجنة أنهم}: أن الكفرة أو الإنس أو الجن أن فسرت بغير الملائكة.

{لمحضرون}: في العذاب.

{سبحان الله عما يصفون}: من الولد والنسب.

{إلا عباد الله المخلصين}: استثناء من المحضرين منقطع أو متصل إن فسر الضمير بما يعمهم وما بينهما من اعتراض أو من يصفون.

1- الصافات، الآيات ١٥٨ : ١٧٠.

{فإنكم وما تعبدون}: عود على خطابهم.

{ما أنتم عليه}: على الله.

{بفاتنين}: مفسدين الناس بالإغواء.

{إلا من هو صال الجحيم}: إلا من سبق في علمه أنه من أهل النار، ويصلاها لا محالة، ويجوز أن يكون وما تعبدون لما فيه من معنى المقارنة ساداً مسدّ الخبر أي أنتم وقرناؤكم لا تزالون تعبدونها بفاتنين على طريق الفتنة إلا ضالاً مستوجباً النار مثلكم[1].

{فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون وإن كانوا ليقولون} ... الخ:

{وما منا إله له مقام معلوم}: الجمهور على أنهم الملائكة وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية، فإنهم يصطفون للصلاة والتسبيح، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله، وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية، وهذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة:

أولاً: قوله تعالى: {وما منا إلا له مقام معلوم} وهذا دليل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها وله درجة لا يتعداها، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم، وإلى درجاتهم في معرفة الله تعالى، أما درجاتهم في التصرفات والأفعال وهي قوله: {وإنا لنحنُ الصافون} والمراد أنهم صافين

1- حاشية الشهاب ٢٨٩/٧، ٢٩٠.

في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى: {وإنا لنحن المسبحون} والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به عز وجل.

{وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً} ... الخ: أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا، ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب، وهو القرآن الكريم؛ كفروا به وسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب[1].

البيان في النص:

{وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً}: فيها التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب.

{إنهم لمحضرون}: المراد به المبالغة في التكذيب ببيان أن الذين يدعى لهم هؤلاء تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤكداً، ويجوز عود الضمير على الكفرة أيضاً[2].

وجملة: {ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون}: معترضة بين جملة {وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً}: وبين جملة {سبحان الله عما يصفون}.

1- الفخر الرازي ١٣/١٧١.
2- روح المعاني ٢٣/١٥٢.

{وجعلوا بينه}: حال والواو حالية، وضمير {أنهم}: عائد إلى المشركين أو إلى الجنة والمراد محضرون بقرينة مقام التوبيخ فإن التوبيخ يتبعه التهديد وحذف متعلق {محضرون} وهي كناية عن كذبهم ويجوز أن يكون استعمال الماضي في موضع المستقبل لتحقيق وقوعه.

{سبحان الله عما يصفون}: اتبعت حكاية قولهم الباطل والوعيد عليه باعتراض بين المستثنى منه المستثنى يتضمن إنشاء تنزيه الله تعالى عما نسبوه إليه وتعجب من فظيع ما نسبوه إليه[1].

{إلا عبادَ الله المخلصينَ}: اعتراض بين جملة {سبحان الله عما يصفون} وجملة: {فإنكم وما تعبدون} الاستثناء منقطع ونشأ عن قولهم: {إنهم لمحضرون}. وقيل: نشأ عن قوله: {عما يصفون} وقيل: من ضمير {وجعلوا}.

والوجه أن يكون استثناءً منقطعاً نشأ عن قوله: {سبحان الله عما يصفون} فهو مرتبط به.

{فإنكم وما تعبدون} .. الخ: يجوز أن يكون هذا الكلام داخلاً في ضمير الاستفتاء من قوله: {فاستفتهم ألربك البنات}، ويجوز أن يكون تفريعاً على قوله: {وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً}.

{وما تعبدون}: الواو للعطف أو واو المعية وما بعدها مفعول معه والخبر {ما أنتم عليه بفاتنين} وضمير {أنتم} خطاب للمشركين

1- التحرير والتنوير ١٨٧/٢٣.

مثل ضمير {إنكم} وجوّز في الكشاف أن يكون قوله: {وما تعبدون} مفعولاً معه ساداً مسد الخبر {إن} والمعنى فإنكم مع ما تعبدون}[1].

وضمير {عليه}: يجوز أن يكون عائداً إلى اسم الجلالة، ويجوز أن يعود إلى {ما تعبدون} بمراعاة إفراد اسم الموصول وهو {ما} وحذف مفعول {فاتنين} بقصد العموم ومعياره صحة الاستثناء في قوله: {إلا من هو صال الجحيم}، والاستثناء مفرغ والمستثنى مفعول {بفاتنين} وحرف على يتعلق {بفاتنين} إمّا لتضمينه {بغائبين} معنى مفسدين وتكون "على" للاستعلاء المجازي، وإمّا لتضمينه معنى حاملين ومسئولين ويكون "على" بمعنى لام التعليل ويكون تقدير مضاف بين "على" ومجرورها تقديره على عبادة ما تعبدون.

والمعنى: أنكم والشياطين لا يتبعكم أحد في دينكم إلا من عرض نفسه ليكون صال الجحيم وهذا في معنى وقوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ }[2].

{وما منا إلا له مقام معلوم}: يجوز أن يكون عطفاً على قوله: {إلا عباد الله المخلصين}: على أول الوجهين في المعنى بعباد الله المخلصين فيكون عطفاً على معنى الاستثناء المنقطع؛ لأن معناه أنهم ليسوا أولاد الله تعالى، وعطف عليه أنهم يتبرءون من ذلك،

1- التحرير والتنوير ١٨٩/٢٣، الكشاف، ٣٥٦/٣.
2- سورة الحجر، الآيتان ٤٢، ٤٣.

فالواو عاطفة قولاً محذوفاً يدل عليه أن ما بعد الواو لا يصلح إلا أن يكون كلام قائل، والتقدير: ويقولون ما منا إلا له مقام معلوم .. الخ.

وهذا الوجه أوفق بالصفات المذكورة من قوله: "إلا له مقام معلوم".

وقوله: {الصافون ... المسبحون} الشائع وصف الملائكة بأمثالها في القرآن كما تقدم في أول السورة وصفهم بالصافات ووصفهم بالتسبيح كثير، والمنفي بـ "ما" محذوف دلّ عليه وصفه بقوله: {منا} والتقدير: وما أحد منا كما في قول سحيم بن وثيل:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايـــا

متى أضع العمامة تعرفوني[1]

وهذا كما وضحنا من إيجاز الحذف والمحذوف، إما جزء جملة مضاف نحو: {واسأل القرية}[2]. وهو كما وضحنا في السورة الكريمة.

{وإنا لنحن} .. الخ: بتعريف جزأي الجملة، وضمير الفصل من قوله {لنحن} يفيدان قصراً مؤكداً فهو من قصر القلب، أي دون ما وصفتموه به من البنوة لله[3].

1- ذكر البيت لسحيم بن وثيل في: المثل السائر ٢/٢٦٠، وبغية الإيضاح ٢/١٢٢، وذكر في المطول وحاشية الدسوقي ومعاهد التنصيص أنه لسحين بن وثيل. ينظر: خزانة الأدب ولباب لسانالعرب ١/١٢٣، ط. دار الكتب، والعقد الفريد ٤/١٢٠، والأغاني ١٢/١٤، والكتاب ١/١٠٧، والتحرير والتنوير ١٢٣/١٩١.

2- سورة يوسف، ٨٢.

3- الكشاف ٣/٣٥٦.

{وإن كانوا ليقولن}: أكد الخبر بـ {إن} المخففة من الثقيلة وبلام الابتداء الفارقة بين المخففة والنافية للتسجيل عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم ليُسد عليهم باب الإنكار وأقحم فعل {كانوا} للدلالة على أن خبر {كان} ثابت لهم في الماضي، والتعبير بالمضارع في {يقولون} لإفادة أن ذلك تكرر منهم، و{لو} شرطية وسدّت {أن} وصلتها مسدَّ فعل الشرط.

{من الأولين}: صفة لـ {ذكر} والمراد بـ {الأولين} الرسل و{من}: ابتدائية، وذكر في جواب {لو} ما هو أخص من الإيمان ليفيد معنى الإيمان بدلالة الفحوى.

وفي جملة: {لكنا عباد الله المخلصين}: صيغة قصر وذلك من أجل كون المسند إليه معرفة بالإضمار والمسند معرفة بالإضافة، ولما وصف المسند بـ {المخلصين} وهو معرّف بلام الجنس حصل قصر عباد الله الذين لهم صفة الإخلاص في المسند إليه وهذا قصر ادعائي للمبالغة في ثبوت صفة الإخلاص لهم، وهو يؤول إلى معنى تفضيل أنفسهم في الإخلاص لله حينئذ.

والفاء في قوله{فكفروا}: للتعقيب على فعل {ليقولون} أي استمر قولهم، أو للفصيحة والتقدير: فكان عندهم ذكر فكفروا فالضمير عائد إلى الذكر وهو القرآن، ولهذا كان الوعيد بقوله: {فسوف يعلمون} موقعة وهو لم بما ضمنه من الإبهام[1].

1- التحرير والتنوير ٢٣/١٨٣، ١٨٤، روح المعاني ٢٣/١٥٤، ١٥٥.

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ *وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ *فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ *وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ *أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ *فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ *وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ *وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ *سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[1].

المعنى:

{ولقد سبقت كلمتنا} .. الخ: أي وعدنا لهم بالنصر والغلبة، وقد تقدم الوعد بذلك في قوله تعالى:{لأغلبنّ أنا ورسلي} والنصرة والغلبة بقوة الحجة، وقد تكون بالدولة والاستيلاء، وقد تكون بالدوام والثبات، فالمؤمن لو صار مغلوباً في بعض الأحيان لضعف إلا أنه هو الغالب، ثم خاطب رسوله بقوله:

{فتولّ عنهم حتى حين}: أي ترك مقالتهم والثقة بوعد الله تعالى بأنه يمتعهم حتى حين، ثم تحل بهم الحسرة والندامة، واختلف المفسرون فقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى يوم القيامة، ثم قال: {وأبصرهم فسوف يبصرون}: أي وما يقضي عليهم من الأسر والقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة.

1- الصافات،الآيات ١٧١ : ١٨٢.

{أفبعذابنا يستعجلون}: أن الرسول كان يهددهم بالعذاب وما رأوا شيئاً، فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء فوضح لهم سبحانه بأن هذا الاستعجال جهل منهم؛ لأن كل شيء من أفعال الله تعالى فطلب حدوثه قبل مجيئه جهلاً.

ثم يصف سبحانه العذاب الذي يستعجلوه، {فإذا نزل بساحتهم}: أي هذا العذاب. {فساء صباح المنذرين}: فبئس صباح المنذرين.

{وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون}: تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتأكيداً لوقوع المعاد.

{سبحان ربك رب العزّة عما يصفون}: تنزيه لله تعالى شأنه عن كل ما يصفه المشركون به.

{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} تشريف لجميع الرسل بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم، وأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب إن شاء الله تعالى.

{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}: على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحُسن العاقبة، والمراد: تعليم المؤمنين كيف يحمدونه سبحانه ويسلّمون على رسله، وهذه الآية من الكوامل والجوامع ووقوعها في موقعها ينادي بلسان زلق أنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة جل في علاه، وعمّ نواله وفضله، وقد أخرج الخطيب عن أبي سعيد قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول بعد أن يسلم: {سبحان ربك رب العزّة عما يصفون * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ* وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}"[1].

البيان في النص:

{ولقد سبقت} .. الخ: تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لبعض الوعيد الذي في قوله: {فسوف يعلمون} بمنزلة بدل البعض من الكل، ولكنه يغلب عليه جانب التسلية فعطف بالواو عطف القصة على القصة، وعبر سبحانه عن الكلام بكلمة إشارة إلى أنه منتظم في معنى واحد دال على المقصود، فشبه بالكلمة الواحدة من سرعة الدلالة وإيجاز اللفظ.

{فتول عنهم حتى حين}: هذا مفرع على التسلية التي تضمنها قوله: {ولقد سبقت كلمتنا} التولي حقيقته: المفارقة كما تقدم في قصة إبراهيم {فتولوا عنه مدبرين} واستعمل هنا مجازاً في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك الفكر في إعراضهم، والحين فيه إيماء إلى تقليله أي تقريبه، فالتنكير للتحقير المعنوي وهو التقليل.

{أبصرهم}: هنا نظر ضميرهم الدال على ذواتهم ولكن المراد هو أحوالهم وهذا وعيد بما حل بهم يوم بدر وحذف ما يتعلق به الابصار، وحذف ما يتعلق به الإبصار من حال أو مفعول معه بتقدير: وأبصرهم مأسورين مقتولين، وصيغة الأمر {وأبصرهم}: مستعملة في الإرشاد وعبر عن ترتب نزول الوعيد بهم بفعل

1- حاشية الشهاب ٢٩٢/٧، ٢٩٣، والرازي ١٧٢/١٣، ١٧٣، الكشاف ٣٥٦/٣، وروح المعاني ١٥٧/٢٣ : ١٥٩، والصاوي على الجلالين ٢٨٨/٣ : ٢٩٠.

الإبصار؛ للدلالة على أن ما توعدوا به واقع لا محالة، وأنه قريب حتى أن الموعود بالنصر يتشوق إلى حلوله، فكان ذلك كناية عن تحققه وقربه وتفريع {فسوف يبصرون} على {وأبصرهم} تفريع لإنذارهم بوعيد قريب على بشارته النبي صلى الله عليه وسلم بقربه فإن ذلك المبصر يسر النبي عليه الصلاة والسلام، ويحزن أعداءه، ففي الكلام اكتفاء، وحذف مفعول يبصرون لدلالة الاقتضاء عليه[1].

{أفبعذابنا يستعجلون}: استفهام توبيخ، وقيل: فرع عليه استفهام تعجبي من استعجالهم ما في تأخيره والنظرة به رأفة بهم.

{فإذا نزل بساحتهم}: الفاء فصيحة أي كانوا يستعجلون بالعذاب فإذا نزل بهم فبئس وقت نزوله[2].

وإسناد النزول للعذاب وجعله في ساحتهم استعارة تمثيلية مكنية حيث شبهت هيئة حصول العذاب لهم بعد الإنذار فلم يعبئوا بها بهيئة نزول جيش عدو في ساحتهم، وذكر الصباح؛ لأنه من علائق الهيئة المشبه بها.

وفي قولهم بـ {المنذرين}: ترشيح للتمثيل وتورية في اللفظ فكأنه قيل: فإذا نزل بساحتهم كانوا مغلوبين، وهذا التمثيل قابل لتفريق أجزائه في التشبيه بأن يشبه العذاب بالجيش، وحلوله بهم بنزول الجيش بساحة قوم ووقت نزول العذاب بتصحيح العدو محلة

1- روح المعاني ١٥٦/٢٣، التحرير والتنوير ١٩٥/٢٣، ١٩٦.
2- التحرير والتنوير ١٩٧/٢٣.

قوم، وفي اختيار هذا التمثيل البديع معنًى بديعاً من الإيماء إلى أن العذاب الذي وُعدوه أصابهم يوم بدر على طريقة التورية[١].

{وتول عنهم حتى حين * وأبصر فسوف يبصرون}: تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأكيداً لوقوع المعاد عقب تأكيد مع ما في إطلاق الفعلين على المفعول من الإيذان بأن مايبصره عليه الصلاة والسلام من فنون المسار وما يبصرونه من فنون المضار لا يحيط به الوصف والبيان[٢].

{سبحان ربك رب العزة عما يصفون}..الخ: خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تنزيلاً لخطابه المبتدأ بقوله تعالى: {فاستفتهم ألربك البنات} وفي خلاصة لما حوته من تنزيه الله تعالى وتأييده رسله، وهذه الآية جمعت تنزيه الله والثناء على الرسل والملائكة وحمد الله على ما سبق من نعم.

{العزة}: على معنى لام الاختصاص كما يقال: صاحب صدق، لمن اختص بالصدق وكان عريقاً فيه، وفي الانتقال من الآيات السابقة إلى التسبيح والتسليم إيذان بانتهاء السورة على طريقة براعة الختم مع كونها من جوامع الكلم، والتعريف في العزة، للجنس فيقضتي تفرده تعالى به لأن ما ثبت لغيره من ذلك الجنس كالعدم، وتنكير {سلام} للتعظيم[٣].

1- التحرير والتنوير ١٩٧/٢٣، الكشاف ٣٥٧/٣.
2- الكشاف ١٥٧/٣، الرازي ١٧٢/١٣.
3- التحرير والتنوير ١٩٩/٢٣ : ٢٠٠.

الخاتمـــــة

الحمد لله أولاً وآخراً، وأصلي وأسلم على خير خلق الله كلهم، من تنزلت علوم آدم فيه عليه، من أعجز الخلائق برسالته السامية التي وصلت إلى أقصى درجة في الإعجاز.

وبعد الدراسة التطبيقية لسورة من أعظم سور القرآن الكريم، وما اشتملت عليه من روائع المعاني والبيان والبديع، وما حوته من مقاصد شريفة في ألفاظ قليلة ومعانٍ كثيرة، وبلاغة تراكيب، وأحوال إسناد، وقصص رائع؛ أدى دوره المنوط به بفاعلية متقنة، فالسورة وما اشتملت عليه من معانٍ بيان، بديع .. تعدّ لسان حال البلاغة الرصين، ومنبع للفصاحة والدقة والرقة والجمال في اختيار الكلمات والتراكيب والجرس والسموّ والجمال – مثلها مثل جميع القرآن الكريم.

فهي تسوقنا إلى الإيمان بلا جدال، فهي الذكر الذي لا يملّ، والإيجاز غير المخلّ، والأسلوب الذي يأخذ الألباب، ويسحر القلوب، عظيمة الفائدة في انسجام آياتها، حسن إيقاعها، جرسها لا يخفى، فمهما بحث الباحثون وطبق البلاغيون لا يستطيع أحد أن يصل إلى جميع ما أودع بهذه السورة من بلاغة وفصاحة وبيان وبديع، وتسلسل معنوي وحكمة.

ومن خلال دراستي لهذه السورة العظيمة القدر تجلّت المعاني البلاغية في علوم البلاغة الثلاث، ووضحت سر جمالها وبلاغتها، وروعة إعجازها، وكذا إبداع اختيار اللفظة القرآنية، وآراء العلماء

فيها، والسورة التي بين أيدينا معجزة ببلاغتها وفصاحتها وبيانها وجمال أسلوبها وقصصها البديع الهادف.

كل ذلك من خلال ما حوته من بلاغة في احوال الإسناد، أحوال المسند، أحوال المسند إليه، أحوال متعلقات الفعل، فصل ووصل، قصر، إنشاء، إيجاز، إطناب، مساواة، حسن تقسيم وترتيب، ومقابلات وسجع وجناس، تشبيه واستعاره، وكناية ومجاز .. كل ذلك في صورة غاية في البهاء والجمال والروعة فهي بحق إعجاز من إعجازه سبحانه وتعالى.

والله أسأل التوفيق؛؛؛

قال تعالى: {وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ}

صدق الله العظيم

د. منى محمد علي عيد

أستاذ مساعد البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

المراجـــع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، بتحقيق: أبو الفضل، ط. ثالثة، ١٩٨٥م.
٢ ـ أثر النحاة في البحث البلاغي: د. عبدالقادر حسين، ط. نهضة مصر.
٣ ـ الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: د. صباح عبيد، طبعة أولى، مطبعة الأمانة.
٤ ـ أسرار البلاغة: عبدالقاهر الجرجاني، بتصحيح: محمد رشيد رضا، ١٩٥٨.
٥ ـ الإشارات والتنبيهات: لابن سينا، بتحقيق: د. سليمان دينار، طبعة دار المعارف.
٦ ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: عزالدين بن عبدالسلام، ط. دار الفكر، دمشق.
٧ ـ إعجاز القرآن: الباقلاني، بتحقيق: السيد صقر، ١٩٨٨م.
٨ ـ الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب.
٩ ـ الأقصى القريب في علم البيان: للتنوخي، مطبعة السعادة، ١٣٢٧هـ.
١٠ ـ آمالي المرتضي: بتحقيق:أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي.
١١ ـ أنباه الرواه على أنباء النحاة، القوصي، بتحقيق: أبو الفضل إبراهيم.

١٢- الإيضاح ملخص تلخيص المفتاح: الخطيب القزويني، دار الفكر العربي.

١٣- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، بتحقيق: أبوالفضل إبراهيم، ط. دار المعرفة، لبنان، طبعة ثانية.

١٤- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبدالمتعال الصعيدي، ط. خامسة، المطبعة النموذجية.

١٥- بغية الوعاة: السيوطي، بتحقيق: محمد أبوالفضل، طبعة الحلبي.

١٦- البلاغة تطور وتاريخ: د. عبدالعظيم عبدالمعطي عرفة، طبعة ١٩٧٧م.

١٧- البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: دار رابح {ب. ت}، دار الفجر.

البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: د. محمد محمد أبو موسى، دار التضامن، ١٩٨٨م.

١٩- البيان عند الشهاب الخفاجي، طبعة ١٩٨٤م.

٢٠- البيان القرآني: د. محمد رجب البيومي، {ب.ت).

٢١- تأويل مُشكل القرآن: ابن قتيبة، بتحقيق: أحمد حنو، طبعة الحلبي، ١٩٥٤.

٢٢- تفسير القرآن العظيم . أبن كثير – ط دار المعرفة.

٢٣- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د. عبدالعظيم المطعني، ١٩٩٩م.

٢٤- تفسير روح المعاني: الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٥٣هـ.

٢٥- تفسير الفخر الرازي: للإمام محمد الرازي، دار الفكر، ١٩٨١م.

٢٦- تفسير الكشاف: الزمخشري، ط. البابي الحلبي، ١٩٧٢م.

٢٧- تلخيص البيان في مجازاة القرآن: الشريف الرضي، بتحقيق: محمد عبدالغني حسن.

٢٨- الجمان في تشبيهات القرآن: ابن ناقيا البغدادي، بتحقيق: مصطفى الجويني، دار المعرفة، الإسكندرية.

٢٩- حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، ط. البابي الحلبي، مطبعة السعادة.

٣٠- حاشية الشهاب المسماه عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

٣١- الحيوان: للجاحظ، بتحقيق: هارون، طبعة أولى، البابي الحلبي.

٣٢- خزانة الأدب: عبدالقادر بن عمر البغدادي، بتحقيق: عبدالسلام هارون، دار الكتب.

٣٣- خصائص التعبير القرآني: د. عبدالعظيم المطعني، طبعة أولى.

٣٤- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. زاهر عوض الألمعي، طبعة الفرزدق، الرياض.

٣٥- الدر المنثور: للسيوطي، دار المعرفة.

٣٦- زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري، بتحقيق: البجاوي، ط. أولى، ١٩٥٣.

٣٧- شرح ديوان امرئ القيس: لحسن السندوي، ط. الاستقامة.
٣٨- شرح فتح الباري على صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، طبعة المعرفة.
٣٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، مكتبة القدس، طبعة بيروت.
٤٠- الصاوي على الجلالين: العلامة الشيخ أحمد الصاوي، طبعة عيسى البابي الحلبي.
٤١- الصناعتين: أبي هلال العسكري، بتحقيق: البجاوي وأبي الفضل، ط.أولى، ١٩٥٢م.
٤٢- الطبقات الكبرى: محمد بن سعيد، بيروت، ١٩٠٧م.
٤٣- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: العلوي، المقتطف، ١٩٣٢م.
٤٤- العثمانية: الجاحظ، بتحقيق: هارون، ط. دار الكتب.
٤٥- عروس الأفراح على شرح تلخيص المفتاح: البهاء السبكي، (ب.ت).
٤٦- العقد الفريد: أحمد بن عبدربه، بتحقيق: محمد سعيد العريان، ط. الاستقامة، ١٩٤١م.
٤٧- العمدة: لابن رشيق، بتحقيق: محمد محي الدين، دار الجيل.
٤٨- عيار الشعر: ابن طباطبا، بتحقيق: الحاجري وسلام،ط. ١٩٥٦م.
٤٩- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: د. فتحي أحمد عامر، ط. ١٣٧٥هـ.

٥٠- كتاب أرسطو في الشعر والبلاغة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
٥١- الكتاب: سيبويه، ط. بولاق.
٥٢- الكامل: المبرد، (ب. ت).
٥٣- لباب البيان: د. محمد حسن شرشر، ط. ثانية، ١٩٨٧م.
٥٤- المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر: ضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، طبعة ثانية، دار النهضة.
٥٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتابالعزيز: القاضي أبو محمد عبدالحق الأندلسي، بتحقيق: المجلس القلمي بمكناس، ١٩٨٩م.
٥٦- المدخل إلى النقد الأدبي: د. غنيمي هلال، طبعة الرسالة، ١٩٩٨م.
٥٧- المصباح في معاني البيان والبديع: لابن مالك، بتحقيق: حسني عبدالجليل، طبعة مكتبة الآداب.
٥٨- مطول على التلخيص: سعد الدين التفتازاني، ط. أحمد كامل، ١٣٣٠هـ.
٥٩- معاهد التنصيص: علي عبدالرحمن أحمد العباس، بتحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، طبعة السعادة، ١٩٤٧م.
٦٠- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط. دار المأمون.
٦١- المعجم المفصل في علوم البلاغة: البديع – البيان – المعاني: د. أنعام فوال، طبعة دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
٦٢- معاني التراكيب: د. عبدالفتاح لاشين، در الطباعة المحمدية.

٦٣- المغني في أبواب التوحيد والعدل: القاضي عبدالجبار، بتحقيق: أمين الخولي، ط. دار الكتب.
٦٤- مفتاح العلوم: السكاكي، طبعة الميمنية.
٦٥- مفردات القرآن: الراغب، (ب.ت).
٦٦- الملل والنحل: الشهرستاني، على هامش الفصل، طبعة ونشر صبيح.
٦٧- من أسرار التعبير في القرآن الكريم: د. هاشم محمد هاشم، طبعة أولى، ١٩٩٤م.
٦٨- منهاج البلغاء: حازم القرطاجي، تونس، ١٩٦٦م.
٦٩- نظرات في البيان: د. عبدالرحمن الكردي، ١٩٨٣م.
٧٠- نقد الشعر: قدامة بن جعفر، ط. الجوائب، طبعة أولى.
٧١- النكت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: بتحقيق: محمد خلف الله وأحمد سلام، طبعة دار المعارف.
٧٢- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: د. الآداب، ١٣١٧هـ.
٧٣- وفيات الأعيان: ابن خلكان، بتحقيق: محي الدين، طبعة أولى، ١٩٤٨م، مكتبة النهضة.

تم بحمد الله وتوفيقه